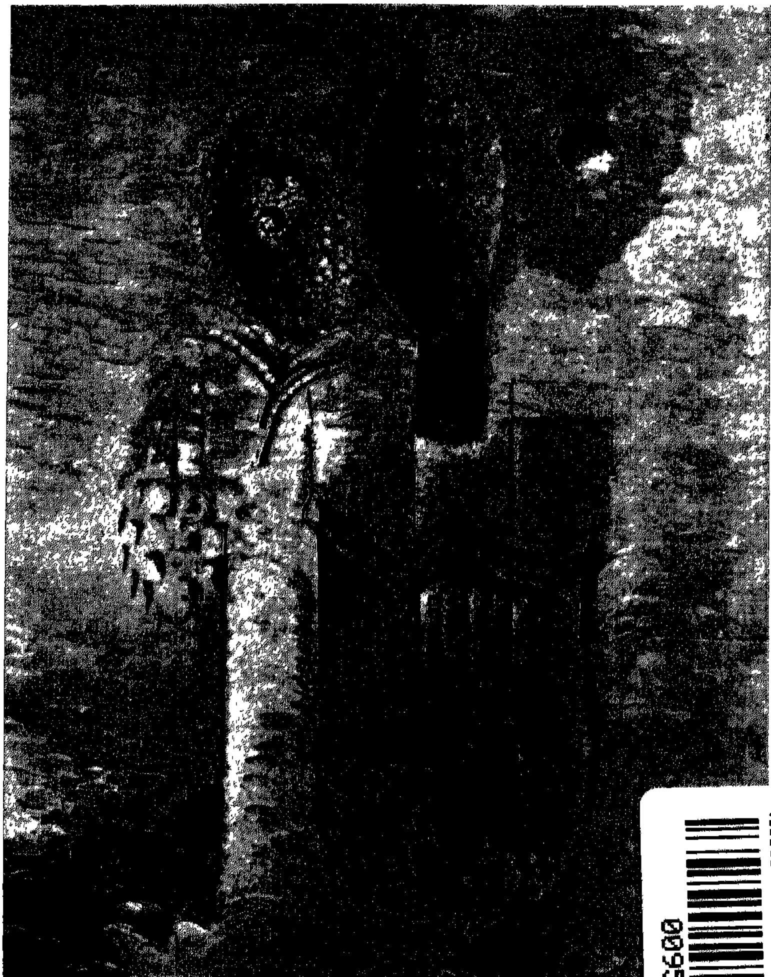
ري برادبري

عربة توينبي



منشورات

٢٢ | القصة

شاكر الانباري

عربة توينبي

منـشورات

٢٢	المدى	القصة

اسم الكتاب : عربة توينبي
المؤلف : ري برادبري
المترجم : شاكر الأنباري
لوحة الغلاف : للفنان ماكس ارنست
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٦

تصميم : محمد سعيد الصكار - باريس
اللوغو : صادق الصائغ

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K A
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

ري برادبري

ترجمة : شاكر الأنباري

عربة توينبي

منشورات

٢٢ | المدى | القصة

مقدمة

ولد ري برادبري في مدينة دوكيكان من مقاطعة الينويز الامريكية عام ١٩٢٠ ، وابتدأ كتابة القصص القصيرة منذ العام ١٩٣٢ ، حيث نشر أكثر من خمسمائة قصة قصيرة ، غير الروايات والمسرحيات والقصائد .

وظهرت أولى مجاميعه القصصية (الحكايات السحرية) وكان عمره عشرين سنة . وري برادبري كاتب غزير الانتاج ، وعندما كان مكرساً حياته كلية للكتابة ، خاصة في العقد الرابع من عمره ، دأب على كتابة أكثر من الف كلمة يومياً ، أي ما لا يقل عن قصة قصيرة واحدة في الأسبوع ، وطوال عشر سنوات متواصلة .

زار المكسيك وكتب عدداً من القصص عن مومياءاتها وطقوس الحياة فيها ، وعاش ستة أشهر في دبلن ، عاصمة ايرلندة ، فاستوحى من أساطيرها المحلية كثيراً من القصص أشهرها قصته (النائحة) ، المترجمة ضمن هذه المجموعة .

وفضلاً عن القصة القصيرة والرواية ، فقد كتب برادبري مجموعة من سيناريوهات الأفلام ، أشهرها سيناريو (موبي دك) عن رواية الكاتب الأمريكي ميلفل ، وأخرج الفلم ، المخرج الامريكي جون هيدسون ، وسيناريو فلم (جاء من الفضاء الخارجي) .

تعتبر روايتا برادبري (درجة ٤٥١ فهرنهايت) و (نبيذ الهندباء البري) ، أكثر أعماله شهرة ، اذ حولت الأولى الى فلم سينمائي عام ١٩٦٦ ، ثم الى

باليه عام ١٩٨٨ ، أما الثانية فأطلق اسمها على فوهات أحد البراكين القمرية ، عندما حط فريق ابولو على القمر ، تكريماً للرواية .

وفي الثمانينات ، طلب منه المساعدة على تصميم مدينة القرن الحادي والعشرين ، التي ستبنى قرب طوكيو .

يمتلك ري برادبري خيالاً هائلاً ، وذاكرة فذة ، يستعيد عبرهما شريط حياته منذ الطفولة ، ثم يستل من ذلك الشريط أفكار قصصه ورواياته غير المألوفة ، فهي تستقرئ الجوانب الخفية من العابر واليومي ، وتنفذ الى أغوار الذهن بما تحتشد به من أساطير ومخاوف وأوهام ،تتحكم في حياة البشر العادية في غفلة عنهم ودون تفسير أحياناً .

يقول برادبري في مقدمته للمجلد الأول من قصصه القصيرة (سلكت في حياتي ثلاث طرق ، كمكتشف مدينة ، مسافر فضاء ، وهائم مع أقارب الكونت دراكولا من الامريكيين) ، وهي محاور واضحة للعيان أمام قارئ برادبري ، فهو كمكتشف للمدينة الحديثة ذات الأوجه غير المتناهية ، ينقلنا عبر قصصه الى عالم البشر فيها حيث تلعب المصادفات دوراً هائلاً في رسم مصائرهم ، كما تشكل الأوهام والخيالات المترائية أثناء الوحدة ومواجهة العالم المادي الذي يبدو صلداً أحياناً ، نسيجاً لا يمكن نكرانه في تكوين الشخصية المعاصرة . أغلب الأحداث التي تدور في قصصه حول انسان المدينة ، أحداث عادية تجري كل يوم ، لكن في لحظة من اللحظات ، وبشكل مفاجئ تتشقق عادية ذلك الواقع لتشف عن الغريب والسري ، اللذين لم يكونا مختبئين تحت قشرة الواقع ذاك فقط ، انما في الأذهان أيضاً .

وهو حين يوصل الشخصيات تلك الى لحظة تفتت الواقعي ، وانهيار المألوف ، فانه يصور ، بالمقابل ، حالة الرعب المندفعة من الأعماق ، وقد كونتها على مر التاريخ البشري ، أساطير وأوهام وخيالات ومآس لا تحصى ، عندئذ يتحول مسرح الحياة الدافئ المطمئن الى ساحة متوحشة ترقص فيها الأشباح والحيوانات الأسطورية والهياكل العظمية وديناصورات ما قبل التاريخ والسحر المعتق في الروح البشرية طوال قرون .

أما غموض الفضاء وأسراره المستعصية على العقل البشري ، رغم بلوغه درجة من النضج والتطور لا يستهان بهما ، فقد هيأ لبرادبري مادة غنية يجرب عليها خياله الفذ . كتب عن الشمس وحرارتها ، عن مارس المتوهج بالحمرة في ليالي الأرض ، عن ساتورن ذي الدوائر المتحجرة الشبيهة بعيون كونية ترقب المجهول ، عن المجرات البعيدة التي استخدم في السفر اليها ورواية مايدور فيها من أحداث ، خياله البشري وحده مستنداً على معرفة واسعة بالرحلات الفضائية والدراسات العلمية والفرضيات التي يتفتق عنها ذهن الباحثين الفضائيين . وقد صُنف ري برادبري على هذا الأساس ، ضمن كُتّاب الخيال العلمي ، وكرس روايته (الأحداث المارسية) لعالم ذلك الكوكب الأحمر الغامض .

مابعد منتصف الليل ، محركات المتعة ، ص للصاروخ ، ف للفضاء ، التفاح الذهبي للشمس ، تعتبر من أهم أعمال هذا الكاتب ، اضافة طبعاً ، لنبيذ الهندباء البري ، ودرجة ٤٥١ فهرنهايت .

شاكر الانباري

كوبنهاغن ١٩٩٣/٧/٢٥

المترجم :

ـ كاتب عراقي من مواليد ١٩٥٧ .

ـ أصدر حتى الآن ثلاث مجموعات قصصية :

١ ـ ثمار البلوط ، دار الصوت ١٩٨٩ ، دنمارك .

٢ ـ شجرة العائلة ، دار الصوت ١٩٩٠ ، دنمارك .

٣ ـ أنا والمجنون ، دار الكنوز الأدبية ١٩٩٥ ، لبنان .

ـ له روايتان :

١ ـ الكلمات الساحرات ، دار الكنوز الأدبية ـ بيروت ١٩٩٤ .

٢ ـ الواح ، دار المدى للثقافة والنشر / دمشق ١٩٩٥ .

ـ بكالوريوس هندسة مدنية ـ العراق .

ـ دبلوم في العلاج الروحي ـ الدنمارك .

السيرك الأخير

وقف جوركس اللسان الأحمر ـ أطلقنا عليه الاسم لانه اعتاد التهام الشوكولاته الحمراء كل يوم ـ تحت نافذتي في صباح بارد من شهر اكتوبر وصاح نحو الديك المعدني الواقف أعلى بيتنا . أخرجت رأسي من النافذة وزفرت البخار قائلاً (أهلاً أحمر اللسان !) .

(تعال ! السيرك !)

خرجت بعد ثلاث دقائق ماسحاً تفاحتين بركبتي ، وكان اللسان الأحمر يرقص لتدفئة جسده . اتفقنا على أن آخر من يصل محطة القطارات عجوز أحمق .

وهكذا هرولنا ، قاضمين التفاح ، خلال المدينة الصامتة .

في المحطة وقفنا على القضبان متنصتين الى همهمتها . بعيداً في صباح الريف ، البارد المعتم ، أدركنا ان السيرك قادم . كان صوته يرتعش على السكة ، فوضعت أذني على الحديد متسمعاً سفره . (اش .) قلت .

بعد وقت قصير كانت القاطرة تتقدم نحونا مصحوبة بالضوء والنار كما لو أنها عاصفة سوداء .

خارج المقطورات كانت المصابيح الزرق والخضر تنوس ، وفي الداخل شخير وزعيق وصياح . انزلت الفيلة ودحرجت الأقفاص ثم اختلطت الأشياء فيما بينها ، وعند الشروق كان الرجال والحيوانات يزحفون ، معهم اللسان

الأحمر وأنا ، خلل المدينة متجهين الى المروج ، حيث كل ورقة عشب بلورة بيضاء وكل شجيرة محملة بالمطر .

(فكر فقط ، ل أ ، قبل دقيقة لم يكن هنا شيء عدا الأرض . انظر الآن .)

نظرنا ، تفتحت الخيمة الكبيرة مثل زهرة يابانية في ماء بارد . الأضواء شعت ، وخلال نصف ساعة ، كانت الفطائر تقلى والناس يضحكون . وقفنا نحدق بكل شيء . وضعت يدي على صدري وشعرت بقلبي يدق عالياً من الانفعال . كل ما أردت عمله هو النظر والشم .

(الى البيت لتناول الفطور !) صرخ ل أ وضربني منبهاً ثم شرع بالركض .

* * *

(ابلع لسانك واغسل وجهك) قالت أمي ناظرة إلي من فوق الطباخ .

(فطائر !) هتفت متعجباً من حدسها .

(كيف كان السيرك ؟) قال أبي وهو يخفض جريدته وينظر الي من فوقها .

(رائع ، مدهش !)

غسلت وجهي من ماء الحنفية البارد ومسحت كرسيي وكانت أمي تضع الفطائر على الطاولة . ناولتني اناء الشيرة وقالت (شربها) .

أثناء ما كنت ألوك ، عدل أبي الجريدة بيده وتنهد (لا أعرف ما الذي سوف يحدث) .

(ينبغي أن لا تقرأ الجريدة في الصباح ، انها تفسد شهيتك .)

(انظر الى هذا) تشكى أبي ناقراً الجريدة باصبعه (حرب جرثومية ، قنبلة نووية ، قنبلة هيدروجينية . ذلك كل ما تقرأه!)

(شخصياً ، عندي غسيل كثير هذا الاسبوع) قالت أمي .

(ذلك هو الخطأ مع العالم ، ينجز البشر غسيلهم على برميل من البارود .)

عبس أبي ثم اعتدل بجلسته وانحنى الى الأمام قائلاً (ماذا تقول الجريدة هذا

الصباح ، لقد حصلوا على قنبلة ذرية بامكانها ازالة شيكاغو من الخارطة . أما مدينة مثل مدينتنا ، فلن يبقى منها سوى الدخان . العار هو الشيء الذي أفكر به دائماً .)

(ماذا ؟) تساءلت .

(لكي نصبح كما نحن عليه اليوم ، تطلب الأمر منا مليون سنة . بنينا المدن والعواصم من لا شيء . قبل مئة سنة لم يكن لهذه المدينة وجود . وقت وعرق وصعاب ، والآن ، بعد أن أنجزناها حجراً فوق حجر ، ما الذي يحدث ؟ بم!)

(أراهن أن ذلك لن يحدث لنا) . قلت .

(كلا ؟ شخر أبي (لماذا ؟)

(هكذا ، فقط لن يحدث) .

(اخرجا كلاكما) أومأت أمي (انك كبير كفاية لكي تدرك أفضل ، وأنت صغير جداً على الفهم .)

أكلنا بصمت ، ثم التفت الى أبي متسائلاً :

(ما كان المكان يشبه قبل أن تبنى المدينة ؟)

(لاشيء على الاطلاق . بحيرة وتلال لا غير .)

(هنود ؟)

(لا يوجد منهم الكثير هنا . غابات فارغة وتلال ، فقط .)

(احذر الشيرة .) قالت أمي .

* * *

(بووووم !) صرخ ل أ (أنا قنبلة ذرية! بووم !)

كنا نقف في الصف منتظرين أمام المسرح . انه أعظم يوم في السنة ، لقد بعنا الذرة في السيرك طوال الصباح لنربح ثمن الدخول . سنتفرج على الهنود الحمر ورعاة البقر في شاشة المسرح ، ثم هذا المساء ، سنرى السيرك نفسه !

كنا نحس بالغنى وكنا نضحك طوال الوقت ل أ ظل طوال الوقت ينظر شذراً خلال حلقته الذرية ويصيح (بوم ، أنت محطم! بوم ، أنت محطم!)

على الشاشة ، كان رعاة البقر يطاردون الهنود الحمر ، وبعد نصف ساعة رد الهنود الحمر رعاة البقر الى الجانب المعاكس ، وبعد أن نال الارهاق من الجميع ، حلت أفلام الكارتون ، أعقبتها الجريدة السينمائية .

(انظر ، القنبلة الذرية!) صاح ل أ ثم هدأ للمرة الأولى .

ارتفعت الغيمة الرمادية الضخمة على الشاشة ، ورأينا السفن الحربية تتمزق والطرادات تنشطر والماء يتساقط . أمسك ل أ يدي بشدة ، محدقاً الى البياض المحترق .

(ألا يثيرك هذا ؟ هه ؟) وخز أضلاعي .

(انها كذبة ضخمة على أية حال . ليتني أمتلك قنبلة ذرية ! بوم ، فتختفي المدرسة !)

(بوم ! وداعاً كلارا هولكوست !)

(بانك ! سلاماً على الضابط اوروركي !)

* * *

على العشاء كانت ثمة كرات لحم سويدية ، وكعك ساخن ، وفاصولياء بوستنية ، مع سلطة خضراء . بدا أبي جاداً كثيراً ومتعباً وغريباً ، وحاول التطرق الى بعض الحقائق العلمية المهمة ، التي قرأها في مجلة ما ، لكن أمي هزت رأسها مستنكرة ما يقول .

(هل أنت على ما يرام ، أبي ؟)

(أنا عازمة على الغاء اشتراكنا في الجريدة . انك تقلق روحك للحد الذي ستصاب فيه بالقرحة ، هل تسمعني ؟)

(يا الهي ! أي فلم كان . القنبلة الذرية حطمت سفينة حربية برمتها ، على المسرح .)

أسقط أبي شوكته وحدق إلي (بعض الأوقات ، دوغلاس ، تملك قدرة خارقة على قول الشيء الخطأ في الوقت الخطأ .)

رمقتني أمي بنظرة تأنيب وقالت (تأخرت . من الأفضل لك الاسراع الى السيرك .)

وبينما كنت أعد قبعتي ومعطفي ، سمعت أبي يقول بصوت واطئ متأن (ما رأيك لو نصفي أعمالنا ؟ تعرفين ، كنا دائماً نرغب بالسفر ، نذهب الى المكسيك ربما . مدينة صغيرة . نستقر .)

(انك تتكلم مثل طفل .) همست أمي . (لا أرغب سماعك تتحدث بهذه الطريقة .)

(ادرك انه حمق ، لا تؤاخذينني . لكنك على حق ، الأفضل الغاء الجريدة .)

* * *

كانت الريح تعصف في الشجر والنجوم طالعة ، وكان السيرك يجثم على التلال ، وسط المرج ، كأنه فطر عملاق . في أيدينا ، أنا و ل أ ذرة وشوكولاتة ، وعلى خدينا تبعثرت خيوط شعر البنات . (انظر لحيتي !) صاح ل أ . كان الجميع يتكلمون ويتدافعون تحت أضواء المصابيح اللماعة ، ثم راح رجل يضرب بقصبة بامبو قماشة ضخمة ويتكلم عالياً حول (الهيكل العظمي) و (السيدة السمينة) و (الرجل المرقش) و (الصبي الفقمة) بينما كنا أنا ول أ ، نتعثر أمام السيدة التي تناولت بطاقتيّ الدخول وشقتهما نصفين .

وجدنا مكاناً للجلوس في اللحظة نفسها التي انفجرت بها الطبول وخرجت الأفيال المزركشة وهي تجر أجسادها بتثاقل . عند الأضواء المتغامزة الساخنة ، كان ثمة رجال يطلقون النار من مدافع ملتهبة ، وسيدات معلقات من أسنانهن البيض يقلدن الفراشات في الأعلى ، وسط غيوم السجائر . كان البهلوانات يتقافزون بين الحبال والعوارض ، أماماً وخلفاً ، والأسود تهرول بخفة حول قفص

أرضيته مغطاة بنشارة الخشب ، وثمة مدرب يطلق الدخان واللهب عليها من مسدس فضي . (انظر !) صرخنا . غمزة هنا ، تثاؤب هناك ، تهريج ، تنهد ، نحنحة ، عجب ، غرابة ، دهشة ، ملهاة ، ضيق نفس ، عيون دهشة ، أفواه مفتوحة ، مركبات تدور حول الحلبة ، مهرجون يتقافزون من فنادق محترقة ، شعورهم طويلة سرعان ما يتحولون من عمالقة الى أقزام ، وسط صندوق بخاري .

كانت الأضواء والحرارة والالتماعات في كل مكان . وكان الحشد يغلي أشد ما يكون الغليان .

طوال نهاية العرض كنت ناظراً الى الأعلى ، وهناك خلفي ، كان ثقب صغير في قماش الخيمة ، ومن خلال ذلك الثقب أمكن لي رؤية المرج القديم تهب عليه الريح والنجوم متلامعة متوحدة . برقة كانت الريح تنقر الخيمة . حين استدرت الى الصخب المثير حولي ، شعرت بالبرودة ، وكان ل أ يضحك بجانبي ، ثم لمحت رجالاً يمتطون الدراجات الفضية على خيط نحيف عال ، بعيد ، والطبول بضرباتها المتوالية ، تا تا تا ، قد فرضت الصمت على الجميع . عقب ذلك ، برز مئتا مهرج يضربون رؤوس بعضهم البعض بعصي غليظة ، أوشك لها ل أ على السقوط من كرسيه من الانفعال . كنت جالساً بلا حراك ، وفي الأخير استدار ل أ ونظر إلي ثم قال (دوك ، أأنت على ما يرام ؟)

(لاشيء .) قلت . تململت في مقعدي ، تطلعت الى زوايا السيرك الحمر وخطوط الحبال والأضواء المتلامعة . نظرت الى المهرجين المطليين بالخارصين وافتعلت الضحك (انظرهناك ، ل أ ، ذلك الرجل البدين !)

غنت الفرقة الموسيقية (المالكة العجوز ليست كما اعتادت أن تكون) ، وقال ل أ مبهور الأنفاس (لقد انتهى كل شيء .)

لبثنا جالسين ، وكان آلاف البشر يخطرون خارجين ، ضاحكين متهامسين ، يزاحم بعضهم البعض . كانت الخيمة متخمة بدخان السجائر والأجهزة الموسيقية مهجورة على الدكة الخشبية ، حيث أتحفتنا الفرقة قبلئذ بعصفها النحاسي . لم نتحرك ، فلا أحد منا يرغب بالمضي .

(أظن ان علينا الذهاب .) قال ل أ مطرقاً .

(دعنا ننتظر .) قلت بخفوت دون النظر الى أي شيء . وشعرت بصلادة رقائق الخشب تحت مؤخرتي بعد ساعات طويلة غريبة من الموسيقى والأضواء . ثمة رجال مشغولون بتجميع الكراسي المتساقطة لكي تنقل خارجاً ، ولاحظت تهدل شرائط قماش الخيمة في بعض الزوايا . وفي كل مكان يلاحظ المرء جلجلة وانقصافاً وقعقعة تدل على ان السيرك في طريقه الى الزوال .

أصبحت الخيمة فارغة .

وقفنا في المنتصف ، تذر الريح الغبار في عيوننا ، وتُسقط الأوراق من الشجر . كانت تحمل الأوراق الميتة بعيداً ، والناس أيضاً . انطفأت مصابيح العرض . مشينا الى قمة التل المجاور ، ثم وقفنا هناك في الظلام العاصف ، اسناننا تصطك ، مراقبين المصابيح الزرق وهي تتناثر في الظلام ، وأطياف الأفيال وهي تطفو ، وأصوات لعنات الرجال أثناء ما كانت تتأهب للرحيل .

بعد ذلك ، هوت الخيمة مثل زفرة عميقة .

وما ان مضت ساعة حتى كان الطريق الترابي يموج بالسيارات والناقلات والأقفاص المذهبة . بدا المرج الشاحب فارغاً . ارتفع القمر في السماء وكسا الصقيع كل ما هو رطب . ل أ وأنا نزلنا التلة ببطء ، كنا نتشمم ما تخلف من نشارة الخشب .

(نشارة) قال ل أ (هذا كل ما خلفوه وراءهم) .

هنا اثر وتد ، وهناك آخر .)

(لا نستطيع أبداً الجزم انهم كانوا هنا .)

(كأنهم من صنع الخيال) .

الريح هبت على المرج ووقفنا نراقب اهتزاز الشجر . لا صوت ولا ضوء . حتى رائحة السيرك تلاشت بعيداً في النهاية .

(حسناً) قال ل أ مجرجراً حذائيه (ينبغي لنا الرجوع الى البيت) . ثم ابتسم .

* * *

مشينا سوية في الطريق المتوحد ، الريح في ظهرينا ، ايدينا في الجيوب ، ورؤوسنا منكسة . اجتزنا الوديان العميقة الصمت ثم سلكنا طرق المدينة الصغيرة . عبرنا البيوت النائمة حيث كنا نقع بين فترة وأخرى على مذياع لا يزال يذيع ، وتناهت الينا ضجة لعبة الكركيت ، فيما كانت أعقابنا تطرق الحجارة الصلدة للشارع الطويل ، تحت المصابيح المتأرجحة المغبشة المنتصبة في كل زاوية .

نظرت الى جميع البيوت وجميع السياجات المتكسرة وجميع السقوف المائلة والنوافذ المضاءة ونظرت الى كل شجرة والى كل طابوقة تحت قدمي . نظرت الى حذائي ونظرت الى ل أ وهو يمشي متلكئاً جنبي مصطك الأسنان . ثم رأيت ساعة المحكمة على بعد ميل ، واجهتها البيضاء الرطبة ترتفع في ضوء القمر ، وكانت أبنية البلدية سود ضخمة .

(تصبح على خير ، دوك .) لم أجب ومضى ل أ ماشياً الشارع ببطء مخترقاً البيوت حيث التهمته احدى الزوايا . انسللت الى الأعلى عبر الدرج ودخلت الفراش في دقيقة واحدة ، ورحت أتطلع نحو المدينة من خلال نافذتي . لابد أن يكون أخي سكب قد استمع الى بكائي فترة طويلة قبل أن يضع يده فوق ذراعي . (ما الأمر ، دوك ؟) (لاشيء .) تنهدت بهدوء وعيناي مغمضتان . (السيرك فقط .) انتظر سكب وهبت الريح حول البيت .

(ما شأنه ؟)

(لاشيء ـ عدا انه لن يعود ثانية .)

(أكيد انه سيعود .) قال .

(كلا ، لقد مضى . ولن يعود ثانية . كله مضى الى حيث كان ، ولم يترك وراءه شيئاً .)

(حاول أن تنام .) قال سكب ثم أدار لي ظهره .

توقفت عن البكاء . في مكان ما ، من المدينة ، كانت ثمة نوافذ قليلة لازالت تضيء . أسفل ، عند المحطة ، قعقعت قاطرة ثم أقلعت مندفعة بين الهضاب . انتظرت في الغرفة المظلمة ، ماسكاً أنفاسي ، فيما كانت النوافذ البعيدة ، في البيوت الصغيرة ، تنطفئ بصمت ، واحدة اثر الأخرى .

النائحة

كانت ليلة من تلك الليالي ، العابرة فوق ايرلندة ، بين مقاطعات دبلن النائمة ، حيث السديم غير المتوقع والضباب الذي يزيحه المطر محولاً اياه الى صمت مطبق . الريف كله هادئ وبارد ومنتظر . كانت ليلة توقعات غريبة في طرق متقاطعة خالية ، تلفها أشباح من نسيج عنكبوت ، ورغم ان لا عنكبوت ثمة على امتداد مائة ميل .

بعيداً ، صرت بوابات عبر الحقول ، فيما خشخشت شبابيك بنور قمر سريع الزوال .

كان الجو جو سحر كما يقال . شعرت بهذا ، عرفته لحظة ما كانت التاكسي تهمهم داخلة البوابة الأخيرة في بيت كورتون . كانت دبلن من البعد بحيث حتى لو ماتت خلال الليل ، فلن يعرف بموتها أحد .

دفعت للسائق وراقبت التاكسي تستدير راجعة الى المدينة الحية ، تاركة اياي وحيداً مع عشرين صفحة في جيبي من سيناريو نهائي ، ومخرج أفلام ينتظرني في الداخل . وقفت في صمت الليل ، مستنشقاً ايرلندة ونافثاً غازات الفحم السامة من روحي .

ثم ، قرعت .

باللحظة نفسها تقريباً ، فتح الباب . كان جون هامبتون هناك ، وقد دس في يدي كأساً من الشرّي(1) ثم جذبني الى الداخل .

(يا لله ، ولد ، لقد جعلتني فضولياً . اخلع معطفك . اعطني المخطوطة . أنهيتها ، ايه ؟ هكذا تقول . جعلتني فضولياً . أنا سعيد انك اتصلت من دبلن . البيت فارغ . كلارا في باريس مع الأطفال . سوف نقرأ المخطوطة جيداً ، ننقحها ، نشرب قنينة ، نكون في الفراش عند الثانية . . . ماذا هناك ؟)

لم يزل الباب مفتوحاً . خطا جون خطوة واحدة ، أمال رأسه ، أغلق عينيه ، أصغى .

في الخارج هبت الريح على المروج . أحدثت في الغيوم صوتاً يشبه صوت أغطية سرير يقلبها شخص ما .

أصغيت .

كان هناك نواح وتنهد رقيقين قادمين من مكان ما من الحقول المظلمة .

همس جون بعينين لا تزالان مغلقتين . (ولد ، هل تعرف ماذا هنالك ؟)

(ماذا ؟)

(أخبرك لاحقاً .هيا .)

باصطفاق الباب ، استدار الملاك الكبير للقصر الفارغ ، وتخطاني بمعطفه المبتذل ، وبنطاله القطني ، وحذائه الملمع ، شعره كعادته ، مبعثر من السباحة برفقة التيار أو عكسه ، مع نساء غريبات في أسرّة لا مألوفة .

زارعاً نفسه عند موقد المكتبة ، واجهني بومضة من الضحك ، كشفت عن أسنانه التي لمعت كأنها شعاع فنار بَرقَ ثم تلاشى ، بينما كان يناولني الشرّي الثاني نخب السيناريو .

(دعنا نرى ، ما الذي أنتجه ، مبدعي ، بطيني الأيسر ، ساعدي اليمين . اجلس . اشرب . راقب .)

وقف منفرج الساقين أمام صخور الموقد ، مدفئاً ظهره ، مقلباً صفحات

---

1 ـ الشري : نبيذ حلو . م .

السيناريو ، وكان يراقبني وأنا أشرب الشرى بعجلة ، مطبقاً عيني كل مرة يترك ورقة تسقط متأرجحة على السجادة . بعد انتهائه من القراءة ترك الورقة الأخيرة تطير ، وأشعل سيجاراً صغيراً وراح ينفخ الدخان ، محدقاً الى السقف جاعلاً اياي أنتظر .

(يا ابن العاهرة) قال زافراً أخيراً (انه جيد . عليك اللعنة ، ولد . انه جيد!)

انهار هيكلي العظمي كله في داخلي . لم أكن أتوقع هبة الاطراء تلك .

(هو بحاجة الى قليل من التقطيع ، طبعاً !)

عاد هيكلي العظمي الى تجميع نفسه .

(طبعاً .) قلت .

انحنى مثل شمبانزي هائل متدل ليجمع الأوراق ثم استدار . شعرت كما لو أنه يرغب بقذفها الى النار . راقب اللهب وقبض على الصفحات .

(يوماً ما ، ولد) قال بهدوء (عليك ان تعلمني الكتابة .)

انه الآن مسترخ ، متقبل لما يحدث ، مليء باعجاب حقيقي .

(يوماً ما) قلت ضاحكاً (عليك أن تعلمني الاخراج .)

(« الوحش » سوف يكون فلمنا ، بني . فريق متكامل .)

نهض وجاء لقرع الكأس معي .

(نحن فريق متكامل!) قال ثم غير الحديث (كيف حال الزوجة والأطفال ؟)

(هم بانتظاري في سيسلي حيث الدفء .)

(سنلحقك بهم ، وبالشمس ، عاجلاً أنا ـ)

تجمد باستثارة ، أمال رأسه ، وأصغى .

(هَيْ ، ما الذي يجري هنا ـ) همس .

استدرت وانتظرت .

هذه المرة ، خارج البيت الكبير العتيق ، كان هناك خيط صوت رقيق ، أشبه بشخص يمرر أظفره على لوحة ، أو شخص ينزلق نازلاً من فرع شجرة جاف . بعدها جاءت زفرة من التنهد ، متبوعة بشيء شبيه بالأنين .

انحنى جون بوضع مثير متخشب ، مثل تمثال على مسرح صامت . صار فمه عريضاً كأنه يحاول السماح للأصوات بالوصول الى أذنه الداخلية .

عيناه الآن مفتوحتان واسعتان كبيضتي دجاجة ينث منهما توقع مفتعل .

(هل أخبرك عن ذلك الصوت ، ولد ؟ نائحة !)

(ماذا ؟) صرخت .

(نائحة!) نغّم . (أشباح النساء العجائز اللواتي يلازمن الطرق قبل ساعة من موت شخص ما[٢] . كان ذلك « هو » الصوت! .)

خطا الى النافذة ، رفع الظلة ، ثم أطل برأسه الى الخارج . (ششش ! ربما تقصدنا « نحن » !)

(توقف ، جون!) ضحكت بهدوء .

(لا ، ولد ، لا .) ثبت نظراته بعيداً في الظلام ، مستمتعاً بمسرحيته . عشت هنا عشر سنوات . الموت هناك في الخارج . النائحة دائماً على « علم »! أين كنا ؟)

بتلك البساطة كسر أسار السحر . كرَّ راجعاً الى الموقد ثم رمق المخطوطة كما لو كانت صنفاً جديداً من الألغاز . (لا تتصور ، دوك ، كم ان « الوحش » يشبهني كثيراً ؟ البطل يركب البحار ، يحرث النساء يميناً وشمالاً ، في كل أنحاء العالم ، دون توقف . ربما لهذا سأعمله . لا تتخيل عدد النساء اللواتي عرفتهن ؟ مئات ! أنا ــ)

توقف ، لان سطور مخطوطتي جذبت انتباهه مرة أخرى . راح وجهه يضيء بالنار ، كلما غطست الكلمات في ذهنه .

(مدهش !)

انتظرت ، قلقاً .

(لا ، ليست المخطوطة!) قذف مخطوطتي جانباً ليقبض على نسخة من « التايمز » اللندنية موضوعة على رف الموقد .

---

٢ ــ وهي أسطورة ايرلندية شائعة . م .

(هذا ! مراجعة مدهشة لمجموعتك القصصية الجديدة!)

(ماذا ؟) قفزت من مكاني .

(اهدأ ، ولد . «سأقرأ» عليك هذه المراجعة الرائعة . ستحبها . مدهش !)

غطس قلبي في صدري . هاهي نكتة أخرى قادمة ، أو ، الأسوء ، الحقيقة المزرية ، على شكل نكتة .

(اسمع!)

رفع جون «التايمز» وراح يقرأ ، كأنه آخاب الكتاب المقدس .

(قصص دوكلاس روجرز ربما ستكون الأوسع نجاحاً في الأدب الأمريكي ـ) توقف جون وغمز لي ببراءة وقال (ما رأيك ، ولد ، ها ؟)

(استمر ، جون) قلت نائحاً . أفرغت كأسي . كانت ضربة النقد تلك قد انزلقت الى الأسفل لتلاقي ارادة متداعية .

(لكن هنا في لندن) ترنم جون (نطلب من قصاصينا أكثر من الحكايا . بنزوعه لمنافسة أفكار كبلنج ، أسلوب موكهام ، ذكاء ووف ، غرق روجرز في مكان ما من الأطلنطي . هذه المادة المتداعية ، لم تكن تقريباً الا ظلالاً للمؤلفين العظام . دوكلاس روجرز ، عد الى بلدك !)

وثبت واقفاً وجريت ، لكن جون قذف بالتايمز الى النار ، بحركة كسولة من يده ، اذ رفرفت مثل طير محتضر ثم همدت بين اللهب والشرر المتطايرين .

بتوازن مختل ، محدقاً الى الأسفل ، كنت راغباً في اخراج تلك الجريدة اللعينة ، لكن في النهاية ، داخلني السرور لضياعها .

درس جون وجهي ببهجة . كان وجهي يغلي ، وأسناني منطبقة بعنف . يدي المتشبثة برف المدفأة ، قبضة صخرية باردة .

عيناي تفجرتا بالدموع ، طالما لم تستطع الكلمات الخروج من فمي المتشنج .

(ما الأمر ، ولد ؟)

أنعم جون النظر فيّ بفضول حقيقي ، وكان مثل قرد يقترب بحذر من حيوان مريض آخر في القفص . (هل تشعر بالبؤس ؟)

(جون ، بريك!) انفجرت غاضباً واستدرت لأحملق فيه بعينين طافرتين بالدموع . (ما «الأمر» معك ؟)

(اللعنة ، لاشيء ، دوك . كانت مراجعة عظيمة ! أضفت اليها بعض الأسطر فقط ، لأقع على طويتك!)

(لا يمكنني أن أعرف الآن مطلقاً .) تباكيت . (انظر!)

ركلت الرماد ركلة أخيرة ، مبعثرة .

(بامكانك شراء نسخة غداً من دبلن ، دوك . سوف ترى . انهم يحبونك . يا الهي ، فقط لا أريدك أن تمتلئ بالغرور ، صحيح . النكتة انتهت . ألا يكفي بني العزيز ، انك كتبت أرفع المشاهد بحق للسيناريو العظيم ، لم تكتبها مسبقاً في حياتك ؟)

وضع جون ذراعيه حول كتفيّ .

ذلك هو جون : يركلك الى الحضيض ، ثم يسكب اليك أحلى العسل .

(تعرف ما هي مشكلتك ، دوك ؟ وضع بين أصابعي المرتعشة كأساً أخرى من الشرى (ايه ؟)

(ماذا ؟) لهثت مثل صبي متباك ، أحسست بالانتعاش ورغبت بالضحك مرة أخرى . (ماذا ؟)

(الأمر هو ، دوك ـ) جعل جون وجهه يشع . عيناه تشبثتا بعيني . (أنت لا تحبني بقدر نصف حبي لك!)

(دعك من هذا جون ـ)

(ولد ، أنا «أعني» ما أقول . يا الهي ، بني ، بامكاني أن أقتل لأجلك . أنت أعظم كاتب حي في العالم ، وأنا أحبك ، قلباً وروحاً . لهذا ، فكرت أنك تحتمل قليلاً من المناكدة . أرى أنني كنت مخطئاً ـ)

(كلا ، جون) احتججت ، كارهاً نفسي ، فهو الآن الذي جعلني أقدم اعتذاري . (كل شيء على ما يرام .)

(أنا آسف ، ولد ، آسف فعلاً ـ)

(كفى !) قهقهت . (أنا لا أزال أحبك . أنا ـ)

(مرحى لك ! الآن ـ) مضى جون دائراً ، فاركاً راحتيه معاً ، ثم راح يلخبط أوراق المخطوطة ويعيد لخبطتها ، مثل لاعب ورق غشّاش . (دعنا نمضي ساعة بتقطيع هذه المشاهد الرائعة ، الفاتنة التي كتبتها ، ثم ـ) للمرة الثالثة في هذه الليلة ، تغير لون مزاجه وايقاعه .

(هست !) صرخ . وبعينين تنظران شزراً ، ترنح وسط الغرفة ، كرجل ميت تحت الماء .

(دوك ، هل تسمع ؟)

هزت الريح البيت . اظفر طويل حك عموداً من أعمدة مخبأ . همس لاهث لغيمة غسلت القمر .

(النائحة .) هز جون رأسه وأحناه ، منتظراً .

حدق الى الأعلى ، بصورة فظة . (دوك ، امض خارجاً و « انظر »)

(اللعنة سأمضي .)

(هيا ، اذهب .) الخ جون . (انها ليلة الاعتقادات الخاطئة ، ولد . لقد شككت « بي » ، لقد شككت « بوجودها » . سأجلب معطفي من الردهة .هيا!)

نتر باب الخزانة وأخرج معطفه التويدي الضخم الذي تفوح منه رائحة تبغ وويسكي فاخر . قابضاً عليه بين يديه القرديتين ، أومأ الى المعطف كما لو كان رداء مصارع ثيران . (هوه ، ثور ! هاه !)

(جون) تنفست ، بارهاق .

(أم أنت جبان ، دوك . هل أنت خائف ؟ أنت ـ)

هنا ، وللمرة الرابعة ، سمع كلانا تنهيدة ، بكاء ، همهمة متلاشية خلف باب الشتاء الأمامي .

(انها تنتظر ، ولد!) قال جون بهيئة احتفالية . (اخرج الى هناك . اركض الى « الفريق » !)

كنت منزعجاً من رائحة التبغ والمسكرات التي تفوح من المعطف ، وقد أسكتني جون بجلاله الملكي وأمسك أذنيّ وقبل حاجبي .

(سوف أكون الشاهد ، ولد ، أحييك من بعيد . أستطيع الذهاب معك ، لكن النائحات خجولات . بوركت ، بني ، وان لم ترجع ـ أحببتك مثل ابني !)

(يا يسوع .) زفرت ، وفتحت الباب على سعته .

لكن فجأة قفز جون وحال بيني وبين نور القمر البارد الفياض .

(لا تذهب الى هناك ، ولد . لقد غيرت رأيي ! إن قتلت ـ)

(جون) أبعدت يديه عني (أنت «تريدني» أن أذهب الى الخارج . من المحتمل أنك دفعت كيلي ، فتاة الاسطبل ، لتقف هناك ، تقوم بكل هذه الضجة لمجرد اضحاكك ـ)

(دوك !) بكى بطريقته الجادة التي يجيد تمثيلها ، وأطبق عينيه ، وهو يمسك بكتفي . (أقسم بالله!)

(جون) قلت نصف غاضب ، نصف مندهش (الى اللقاء .)

ركضت خارج الباب ملياً بأسى مفاجئ . صفق البوابة وأغلقها . هل كان يضحك ؟ بعد ثوان رأيت خياله على نافذة المكتبة ، بيده كأس الشرى ، مطيلاً التحديق الى مسرح الليلة ، اذ كان فيها المخرج والمشاهد المرح معاً .

دومت مع لعنة هادئة ، جامعاً كتفيَ في عباءة «قيصر» ، وتجاهلت طعنات الريح الباردة . مشيت بخطى ثقيلة على الطريق المكسو بالحصى .

سأمضي عشر دقائق سريعة ، فكرت ، لأقلق جون ، وأقلب نكتته بطناً لظهر ، أدخل بعدها مترنحاً ، مشمر القميص ونازفاً ، مع حكاية مختلقة من عندي . نعم ، يا الله ، «تلك» كانت الحيلة ـ

توقفت .

ففي عقدة من الأشجار ، خيل لي أنني رأيت شيئاً يشبه طيارة ورقية واسعة ، تفتحت ثم تلاشت بين الأسيجة الشجرية .

أبحرت الغيوم على قمر شبه مكتمل ، وأسقطت عليَ جزراً من الظلام جللتني .

ثم كانت هناك مرة ثانية ، على مبعدة ، كما لو أن عنقوداً كاملاً من الأزهار تبعثر فجأة ليتطاير على طول الممر المعتم . في اللحظة نفسها ، كان ثمة قبضة من تنهد ضئيل ، وصرير خافت من النواح .

جفلت ، تراجعت ، ثم نظرت بعيداً نحو البيت .

كان وجه جون في النافذة ، ضاحكاً ، أشبه بيقطينة ، يرتشف الشرى بدفء وانبساط .

(أووه) أعول صوت في مكان ما . (. . . الهي . . . .)

عند هذه اللحظة رأيت المرأة .

وقفت مستندة على شجرة ، برداء طويل ، قمري اللون غطته بشال صوفي ثقيل يمتلك حياته الخاصة ، اذ كان يتلوى ويتطاير مع الهواء . .

بدت كما لو أنها لم ترني أو انها رأتني لكن لم تعر الأمر أهمية : أنا لا أستطيع اخافتها ، لا شيء في الوجود يمكن أن يخيفها مرة ثانية أبداً .نظرتها الثابتة المطمئنة تنصب على البيت ، على تلك النافذة ، المكتبة ، والصورة الظلية للرجل الواقف في النافذة .

كانت تمتلك وجهاً من الثلج ، مقطوعاً من ذلك المرمر الأبيض البارد الذي تصنع منه أجمل نساء ايرلندة ، رقبة بجعية طويلة ، فم كريم ، وعينان ذاتا خضرة نيرة . فائقتا الجمال كانت تلكما العينين ، وكان أيضاً مظهرها الجانبي المقابل لأغصان الشجرة المتطايرة ، أحسست بأن شيئاً ما فيّ تهاوى ، احتضر ، ومات . أحسست بذلك العذاب القاتل الذي يشعر به الرجال حين يمر بهم الجمال مرة وإلى الأبد . تود أن تصيح : ابقي . احبك . لكنك لا تستطيع الكلام . الى أن يغادر الصيف جسدها ، دون عودة .

غير أن المرأة الجميلة التي تحدق الى النافذة فقط في البيت البعيد ، راحت تتكلم الآن قائلة :

(أهو هناك في الداخل ؟)

(ماذا ؟) سمعت نفسي أقول .

(انه هو ، أليس كذلك ؟) تساءلت متعجبة . (الوحش) قالت بغضب هادئ . (المسخ . نفسه .)

(لا ــــ)

(الحيوان الكبير) مضت تقول ، (الذي يمشي على ساقين . يبقى هو .

جميعهن يمضين . يمسح يديه بالأجساد ، الفتيات مناديله ، النساء غداء منتصف الليل . انه يحتفظ بهن في القبو مخبآت معتقات ، يعرف أعمارهن لكن لا يعرف أسماءهن . يا يسوع الحبيب ، و«هو» هناك أليس كذلك ؟)

نظرت الى حيث كانت تنظر ، نحو الظل في النافذة ، عبر ساحة لعبة الكركيت .

وفكرت بمخرجي في باريس ، في روما ، في نيويورك في هوليوود ، والنساء من مختلف الأعراق اللواتي رأيت جون يلهو بهن ، يطبع على جلودهن قدميه . نساء سهلات كن يرقصن على الطاولات ، متلهفات للاطراء ، وجون في طريقه للخروج يقول (عزيزي ، أعرني خمسة دولارات . ذلك الشحاذ عند الباب قتل قلبي -)

راقبت هذه المرأة الشابة ، التي تطيّر الريح شعرها الفاحم ، وسألت :

(من « يفترض » به ان يكون ؟)

(هو) قالت (هو الذي يعيش هناك وكان يحبني ولم يعد كذلك الآن .)

أغلقت عينيها لتدع الدموع تتساقط منهما .

(لم يعد يعيش هناك .) قلت .

(نعم يعيش!) احتدمت ، كما لو تريد الضرب أو البصق (لماذا تكذب ؟)

(اصغي إلي .) نظرت الى الثلج الناصع لكن القديم ، في وجهها (كان ذلك في زمن آخر .)

(كلا ، ليس هناك الا «الآن» .) بدت كما لو انها ستندفع الى البيت . (ولا زلت أحبه كثيراً ، للحد الذي أستطيع أن أقتل من أجله ، وأفقد روحي في النهاية!)

(ماهو اسمه ؟) وقفت في طريقها . («اسمه» ؟)

(لماذا ؟ ويل ، طبعاً . ويلي . ويليم .)

تحركت . رفعت ذراعي وهززت رأسي .

(هناك جوني فقط الآن . جون .)

(أنت تكذب ! انني أشعر به هناك . اسمه . تغيّر ، لكنه «هو» . انظر ! تحسس !)

رفعت يديها لتلمس الريح القادمة من البيت ، واستدرت أنا أيضاً ثم شاركتها اللمس ، وكانت الريح ريح سنة أخرى ، وزمان آخر . هكذا قالت الريح ، قالت الليلة والقبس الملتمع في النافذة الكبيرة حيث يقف الظل . (انه هناك!)

(واحد من أصدقائي .) قلت برقة .

(هو ليس صديق أحد ، مطلقاً!)

حاولت النظر خلال عينيها وفكرت : يا الهي ، هل كانت الأمور على هذه الشاكلة دائماً ؟ دائماً ثمة رجل ما في ذلك البيت ، لأربعين ، ثمانين ، مائة سنة قبل اليوم! لا الرجل نفسه ، لكن كل من كان على تلك الصفة ، وهذه الفتاة الضائعة على الطريق ، بثلوج ذراعيها التواقتين للحب ، وجمد قلبها الباحث عن الراحة . لا تفعل شيئاً سوى الهمس والدندنة والنواح والتنهد الى ان يهمد نشيجها حال ارتفاع الشمس ثم تعود ثانية عند صعود القمر !

(ذلك هو صديقي في الداخل .) قلت ثانية .

(ان كان ما تقول صحيحاً) همست بعنف (فأنت عدوي!)

نظرت أسفل الطريق حيث بعثرت الريح الغبار حول بوابة المقبرة .

(ارجعي من حيث أتيت) قلت .

نظرت الى الطريق نفسه والغبار نفسه ، ثم قالت مرتعشة الصوت (ألا يمكن ان يحل السلام ، اذن ؟ هل كتب على الطواف هنا ، سنة بعد سنة ، من دون انتقام ؟)

(ان كان الرجل هناك ، هو ويل حقيقة ، فماذا تطلبين مني أن أفعل ؟) قلت :

(أرسله خارجاً إليّ .) قالت ، بهدوء .

(ماذا ستفعلين به ؟)

(أستلقي معه) همهمت (ولن يفيق مرة أخرى . سيُترك مثل صخرة في نهر بارد .)

(آه) قلت ، وهززت رأسي .

(هل يمكنك الطلب منه أن يأتي اذن ؟)

(كلا . فهو ليس بصاحبك . يشبهه كثيراً . قريب الشبه . ويفطر بالفتيات ثم يمسح فمه بحريرهن ، قرن من القرون يدعى كذا ، والآخر كذا .)

(ولا حب في قلبه ، البتة ؟)

(انه يطلق الكلمات مثلما يلقي الصيادون شباكهم الى البحر .) قلت .

(آه ، الهي ، وقد صادني أنا!) وهنا أطلقت صرخة جعلت الظل في البيت الكبير يتقدم الى النافذة ليطل منها الى ساحة الكركيت . (سأظل في مكاني بقية الليلة .) قالت (سيشعر بوجودي لا محالة ، سيذوب قلبه ، لا يهم ماذا يدعى ، وكم شريرة روحه . أية سنة هذه ؟ ما طول المدة التي لبثتها منتظرة ؟)

(لا أستطيع اخبارك ، ستمزق الحقيقة قلبك .) قلت .

استدارت ونظرت إليّ بدقة . (أأنت واحد من الرجال الطيبين اذن ، الذين لا يكذبون أبداً ،ولا يؤذون أبداً ولا يخفون شيئاً ؟ يا الهي الرحيم ، ليتني تعرفت عليك أولاً!)

الريح تعالت ، وتعالى هبوبها في حنجرتها ، ودقت ساعة في مكان بعيد من الحقول المحيطة بالمدينة النائمة .

(ينبغي علي أن أذهب) قلت . أخذت نفساً وسألتها (ألا توجد طريقة ما أقوم بها لأعطيك الراحة ؟)

(كلا ، لأنك لست الشخص الذي قطّع أعصابي) .

(أفهم .) قلت .

(لا تفهم لكنك تحاول . أشكرك جداً على هذا . ادخل . والا ستموت .)

(وأنت ـــ ؟)

(ها !) بكت (أنا ميتة منذ فترة طويلة . لا موت بعد ذلك . امض!)

بسعادة مضيت . لانني كنت مليئاً بالليل البارد والقمر الأبيض ، مليئاً بالماضي والحاضر . دفعتني الريح على المرتفعات العشبية ، وعند الباب ، استدرت . لم تزل واقفة على الطريق الحليبي ، شالها يخفق في الهواء ، ويد من يديها مرفوعة فوق رأسها .

(أسرع) فكرت أني سمعتها تهمس (خبره انه محتاج اليه!)
صدمت الباب واندفعت الى داخل البيت ، وتداعيت في منتصف البهو ، قلبي يخفق بعنف ، صورتي في مرآة البهو الواسعة شاحبة مصعوقة .
وجدت جون في المكتبة يرتشف كأساً أخرى ، فما كان منه الا ان قدم لي كأساً من الشرى وقال (يوماً ما ، سوف تتعلم أن تشتري ما أقوله لك بثمن أغلى من حبة الملح . يا يسوع ، انظر الى نفسك ! أنت بارد كالثلج . ابتلع خمرتك . هاهي كأس أخرى جاهزة !)
شربت . سكب . شربت . (أكل ما يحدث نكتة ، اذن ؟)
(هل يعدو الأمر «ذلك» ؟)
من خارج البيت تصاعدت الدندنة مجدداً ، النواح الضئيل ، كما لو ان القمر يحك السطح بأظفره .
(تلك هي نائحتك .) قلت ناظراً الى شرابي غير قادر على الحركة .
(أكيد ، ولد ، أكيد ، اوووه ـ هوو) قال جون . (احتس شرابك ، دوك ، وسوف أقرأ عليك ثانية تلك المراجعة العظيمة حول كتابك في جريدة «التايمز» .
(لقد أحرقتها ، جون .)
(أكيد ، ولد ، غير أني أتذكرها جيداً كما كتبت هذا الصباح . اشرب .)
(جون) قلت وأنا أحدق الى النار ، وأنظر الى الموقد حيث رماد الجريدة يتطاير بلهاث كبير . (هل . . . . كانت . . . . . المراجعة موجودة حقيقة ؟)
(يا الهي ، طبعاً ، أكيد ، نعم . في الواقع . . .) تمهل برهة وأعطى لنفسه هيئة عظيمة من التركيز . (التايمز كانت تعرف حبي لك ، دوك ، فسألتني كي أراجع كتابك .) مد جون ذراعه وأعاد ملء كأسي وقال (قمت بذلك ، تحت اسم مستعار طبعاً ، الآن هل كان في المسألة تبجح مني ؟ لكن فضلت أن أكون عادلاً ، دوك ، أكون عادلاً . لذلك كتبت عن الأشياء الجيدة في كتابك ، والأشياء التي ليست بجيدة . انتقدته كما أفعل حين تسلمني مشهد سيناريو ركيك وأطلب منك العمل عليه من جديد . الآن ، أليس الأمر مطلق النبل مني ؟ ايه ؟)

انحنى عليّ ، ووضع يده على خدي ورفعه اليه ثم نظر طويلاً بود في عيني .
(أنت لست قلقاً ؟)
(كلا .) قلت ، لكن صوتي تهدج .
(ان كنت قلقاً فأنا أعتذر . نكتة ، ولد ، نكتة فقط .)
وهنا وجه لي ضربة ودودة على ذراعي .
عاد التنهد يلف البيت ، خفيفاً كالسابق .
(أتمنى لو لم تختلق تلك النكتة ، أتمنى لو كانت المقالة حقيقة .) قلت .
(أنا أيضاً ، ولد . تبدو مستاء . أنا ـ)
الريح دومت حول البيت . النوافذ خشخشت وهمست .
قلت فجأة ، دون سبب أعرفه :
(النائحة . انها هناك في الخارج .)
(تلك نكتة كانت ، دوك . عليك الحذر مني .)
(لا) قلت ناظراً الى النافذة . (انها هناك) .
ضحك جون . (رأيتها ، أليس كذلك ؟)
(فتاة لذيذة ترتدي شالاً وسط الليلة الباردة . فتاة بشعر طويل وعينين واسعتين خضراوين وطلعة تشبه الثلج وحاجب فينيقي فخور . نوع من النساء لم تعرفه مطلقاً في حياتك ، جون ؟)
(آلاف .) ضحك جون بهدوء فائق هذه المرة ، وهو ينظر مدى جدية نكتتي . (يا للجحيم ـ)
(انها بانتظارك عند نهاية الطريق) .
بشك رمق جون النافذة .
(ذلك هو الصوت الذي سمعناه . لقد أعطت أوصافك ، أو أوصاف آخر شبيه . يدعى ويلي ، ويليم . لكني « عرفت » انك المقصود .
اندهش جون . (شابة تقول ، وجميلة ، وهي هناك في هذه اللحظة . . . ؟)
(أكثر جمالاً من كل النساء اللواتي عرفتهن .)
(لا تحمل سكيناً . . . ؟)

(عزلاء .)

زفر جون . (حسناً اذن ، أعتقد أني سأمضي الى هناك للحديث معها ، ايه ، ماذا تعتقد ؟)

(انها منتظرة .)

مشى تجاه الباب الأمامي .

(ارتد معطفك ، فالليلة باردة .) قلت .

كان يرتدي معطفه حين سمعنا الصوت في الخارج ، واضحاً جداً هذه المرة . النحيب ثم التنهد ثم بعدها النحيب أيضاً .

(يا ربي) قال جون ، ويده على مقبض الباب ، غير راغب باظهار الخوف أمامي . (هي «حقيقة» هناك ؟)

دفع نفسه دفعاً لادارة المقبض وفتح الباب . نفذت الريح الى الداخل ، حاملة معها نواحاً متقطعاً .

وقف جون وسط الهواء البارد ، ناظراً الطريق الطويل الذائب في الظلام .

(انتظر !) صرخت في اللحظة الأخيرة .

انتظر جون .

(بقي أمر ينبغي لي اخبارك به . انها هنا ، أجل . وهي تمشي . لكن . . انها ميتة .)

(لست خائفاً .) قال جون .

(كلا ، لكن أنا الخائف . سوف لن تعود . على الرغم من كرهي لك اللحظة ، لكن لا أستطيع أن أتركك تذهب . أغلق الباب ، جون .)

التنهد من جديد ، ثم النواح بعده .

(أغلق الباب .)

خطوت لأسحب يده عن مقبض الباب النحاسي ، لكنه تمسك به بقوة . هز رأسه ، تطلع فيّ ، ثم تنهد .

(أنت بارع حقيقة ، ولد . بارع كبراعتي تقريباً . سأضعك في فلمي القادم . ستكون نجماً .)

بعد ذلك استدار . خطا خارجاً الى الليل البارد ، ثم أغلق الباب بهدوء .

انتظرت حتى سمعت خطواته على الممر الحصوي ، فرتجت الباب ، ثم سارعت لاطفاء الأضواء داخل البيت . حين خطوت عبر المكتبة ، كانت الريح تعول في المدخنة مبعثرة الرماد الأسود لـ «التايمز» عبر الموقد .

وقفت أتطلع الى الرماد فترة طويلة ، ثم أفقت الى نفسي ، فركضت صاعداً الدرج كل درجتين بقفزة واحدة ، فتحت باب غرفتي المعلقة في البرج ، صفقت الباب ، خلعت ملابسي ، وكنت في السرير والأغطية فوق رأسي حين دقت ساعة المدينة ، بعيداً ، معلنة الواحدة صباحاً .

وكانت غرفتي عالية جداً ، ضائعة في البيت والسماء ، لا يهم من وماذا يطرق أو يدق أو ينقر على الباب الأسفل لا يهم من يهمس أو يتوسل أو يصرخ -

فمن بامكانه السماع ؟

باركني، أبانا، انني أخطأت

استيقظ الأب ميلون ، قبل منتصف ليلة عيد الميلاد بالضبط ، حيث لم ينم الا بضع دقائق فقط . كان لديه دافع غريب للنهوض ، الذهاب ، وفتح باب كنيسته الأمامي ليدع الثلج يدخل وليجلس على كرسي الاعتراف وينتظر .

ينتظر ماذا ؟ من يستطيع القول ، من يعرف ؟ لكن الدافع من القوة حيث لم يتمكن من تجاهله . (ما الذي يجري هنا ؟) غمغم بهدوء لنفسه وهو يرتدي ملابسه . (انني في طريقي الى الجنون ، أليس كذلك ؟ في هذه الساعة من يجرؤ على الرغبة أو الحاجة لشيء ، ثم لماذا ينبغي لي -)

الا انه نزل بعد ارتداء ملابسه الى الأسفل وفتح باب الكنيسة الأمامي ووقف فيه مدهوشاً ، اذ انه أمام مشهد فني عظيم ، أعظم من أية صورة في التاريخ ؛ سجادة من الثلج منسوجة بالتخاريم تربت على السقوف وتظلل المصابيح وتدثر بالشالات البيض كتل السيارات الجاثمة قرب الحاجز الحجري . لامس الثلج الأرصفة ثم رموش عينيه ، فقلبه . ووجد نفسه يحبس لهاثه انبهاراً بذلك الجمال الثائر ، فما كان منه الا العودة الى كرسي الاعتراف ليختبئ هناك ، وبقية من الثلج تتشبث بظهره .

شيخ أحمق . اخرج من هنا ! عد الى فراشك !

عندها حدث الأمر ، صوت على الباب وخطى أقدام تصرف على بلاط أرضية الكنيسة وأخيراً ، حفيف كئيب لغريب حط في الجانب الآخر من كرسي الاعتراف . كان الأب ميلون ينتظر .

(باركني) همس صوت الرجل (لأنني أخطأت!) . ولعجالة الطلب ، لم يستطع الأب ميلون سوى القول مصعوقاً : (كيف أمكنك معرفة ان الكنيسة ستكون مفتوحة وأنني سأكون هنا ؟)

(ابتهلت ، أبانا ، الله جعلك تأتي لتفتح .)

بدا ان لا جواب لهذا ، فالقس العجوز ، وطالب المغفرة العجوز ، جلسا فترة طويلة باردة فيما كانت الساعة تغذ الخطى صوب انتصاف الليل . وأخيراً ردد الغريب من الظلام :

(بارك هذا الخاطئ أبانا!)

لكن عوضاً عن مرهم الكلمات وبلسمها ، ومع تواثب الميلاد السريع خلل الثلج ، انحنى الأب ميلون نحو النافذة المشبكة ولم ينفع قوله :

(لابد أن يكون حملاً مرهقاً من الأخطاء ذاك الذي ساقك خارجاً بمثل هذه الليلة لمهمة مستحيلة صارت ممكنة فقط لأن الله استجاب ودفعني خارج الفراش) .

(قائمة مرهقة أبانا ، كما سوف تكتشف!)

(تكلم اذن بني ، قبل أن نتجمد كلانا .)

(حسناً ، هكذا هي ـ) همس الصوت الشتائي من خلف الألواح النحيلة (قبل ستين سنة ـ)

(ستون ؟ تكلم ! ذلك الماضي الطويل ؟ استمر .) لهث القس خجلاً من المقاطعة .

(ستون سنة هذا الأسبوع ، أول مسواق للميلاد مع جدتي ، في مدينة صغيرة تقع آخر الشرق . مشينا كل الشوارع ، من كان يملك سيارة تلك الأيام ؟ مشينا ، ثم عدنا نحو البيت مع رزم الهدايا . قالت جدتي شيئاً ما نسيته منذ فترة طويلة ، أغاظني ، فركضت بعيداً عنها ، هارباً . بعيداً جداً ، وكنت أسمع

نداءها وعويلها وهي تدعوني للرجوع . ارجع ، كانت تولول . الا انني لم أرجع . عرفت انني آذيتها ، الأمر الذي جعلني أشعر بالقوة والسعادة ، فركضت أكثر ضاحكاً ، وسبقتها الى البيت . حين دخلت البيت كانت تلهث وتنشج كما لو انها لن تتوقف أبداً . أحسست بالخجل وركضت للاختباء . . . . .)

(أهذا كل شيء ؟) قال القس مستحثاً .

(القائمة طويلة) . غمغم الصوت خلف القضبان النحيلة .

(استمر .) قال القس مطبق العينين .

(أقدمت على أمر شبيه مع أمي ، قبل رأس السنة . أغضبتني ، ركضت ، سمعتها تبكي ورائي . ابتسمت وركضت أسرع . لماذا ؟ لماذا ، يا الهي ، لماذا ؟)

لم يحر القس جواباً .

(أهذا كل شيء اذن ؟) تمتم القس ومن ثم تحرك مقابل الرجل الخفي بمشاعر غريبة .

(في نهار صيفي ، ضربني بعض الأشقياء . وبعد ان مضوا رأيت في أجمة فراشتين جميلتين مذهلتين . كرهت سعادتهما . أمسكتهما بقبضتي وسحقتهما . حولتهما الى تراب . آه ، العار ، أبانا .) .

في هذه اللحظة هبت الريح من باب الكنيسة وحدق كلاهما الى الأعلى لرؤية أشباح الميلاد الثلجية وهي تتلوى خلال الباب لتسقط بعيداً على شكل ركام أبيض يتجمع على الأرصفة .

(هناك شيء أخير مزعج) قال الرجل العجوز معتزلاً مع حزنه ، ومن ثم مواصلاً :

(عندما كنت في الثالثة عشر ، وفي أسبوع الميلاد أيضاً ، هرب كلبي بو وضاع ثلاثة أيام بلياليها . أحببته أكثر من الحياة نفسها . كان فريداً ورقيقاً ومحبوباً . غاب الحيوان ، هكذا ، في لحظة ، مع كل جماله . انتظرت ، بكيت ، انتظرت ، ابتهلت ، صحت حتى تقطعت أنفاسي . أدركت أنه لن يعود ، على الاطلاق !

وبعدها ، آه ، بعدها ، في ليلة الميلاد عند الثانية صباحاً ، وكان الجليد على الأرصفة ودوالي الثلج فوق السقوف والثلج يتساقط ، سمعت خلال النوم صوتاً ، فأفقت كي أسمعه يخمش الباب ! غادرت الفراش سريعاً حتى كدت أن أقتل نفسي ! فتحت الباب وكان هناك ، كلبي التعس ، مرتجفاً مستثاراً مغطى برقائق الثلج القذرة . أعولت ، سحبته الى الداخل ، صفقت الباب ، وسقطت على ركبتي . أمسكته وبكيت . أية هدية ، أية هدية ! ناديت اسمه مرة ومرة ، وبكل أنين المتعة بكى معي هو أيضاً . ثم توقفت بعدها ، هل تعلم ماذا فعلت ؟ هل تخمن الشيء المروع ؟ ضربته ، نعم ضربته ، بقبضتي ، بيدي ، براحتي ، ثم بقبضتي مرة أخرى ، ناشجاً : كيف تجرؤ على هجري ، كيف تجرؤ على الهرب ، كيف تجرؤ على فعل ذلك معي ، كيف تجرؤ ، كيف! ؟ ثم ضربت وضربت حتى انهدت قواي وكان عليّ التوقف لانني رأيت ما صنعت ، وكان هو واقفاً فقط ، تقبّل الأمر كما لو انه يستحقه فعلاً ، خذل حبي وأنا الآن أقوم بالمثل ، ثم انسحبت والدموع تسيل من عيني وأنفاسي مختنقة . بعدها أمسكته ثانية وطوقته باكياً : سامحني بو ، آه بو ، رجاء سامحني . لم أقصد ما فعلت ، آه بو ، سامحني . . . .

لكن ، أبانا ، لم يستطع مسامحتي . ما هو ؟ دابة ، حيوان ، كلب . ثم نظرني بعينين عميقتي السواد أغلقتا قلبي ، وسيظل مغلقاً على العار الى الأبد . لم أستطع المغفرة لنفسي بعد ذلك . كل تلك السنين ، ذكرى حبي له وخذلاني ، وفي كل عيد ميلاد بعدها ، لا بقية السنة انما في ليلة عيد الميلاد ، يعود شبحه . أراه ، أسمع الضربات ، فأتذكر خطيئتي .)

صمت الرجل ناشجاً . ثم تفوه القس المسن قائلاً :

(ولذلك أنت هنا ؟)

(نعم أبانا . أليس الأمر مريعاً ومزعجاً ؟)

لم يجب القس ، فالدموع راحت تسح على وجهه هو الآخر ، ووجد روحه مختنقة الأنفاس بلا حدود .

(هل يغفر لي الله ، أبانا ؟)

(نعم)

(أبانا ، هل تغفر لي أنت ؟)

(نعم ، لكن دعني أخبرك شيئاً يا بني . عندما كنت في العاشرة حدث معي الأمر نفسه . والدي طبعاً ، ثم كلبي ، حب حياتي الذي هرب فكرهته لانه تركني ، وحين عاد ، أنا أيضاً أحببته وضربته ، ثم رجعت الى حبه . حتى هذه الليلة لم أخبر أحداً . ظل الخجل متوهجاً طوال تلك السنوات . اعترفت للقسسة بكل شيء ، عدا هذا . لذلك ـ) (لذلك ـ أبانا ؟)

(الرب ، الرب عزيزي ، سوف يغفر لنا . في الختام نجحنا بالبوح ، جرؤنا على القول . وأنا ، أنا أسامحك . لكن أخيراً ـ) لم يستطع القس مواصلة الحديث ، فثمة دموع جديدة راحت تسيل خفيفة على وجهه وتهطل الى الأسفل . خمن الغريب ما يفكر به القس فتساءل بحذر شديد (هل ترغب بمغفرتي أبانا ؟)

أومأ القس بصمت ، وأغلب الظن ان الآخر لمح ظل الايماءة ، فقال بسرعة (آه ، حسناً ، منحتها لك .)

ثم جلس كلاهما في الظلام فترة طويلة ، وتحرك شبح آخر على الباب ، غطس في عاصفة الثلج ثم تبعثر في البعيد .

(قبل أن ترحل) قال القس (تعال نرتشف سوية قدحاً من النبيذ) .

في الساحة المقابلة للكنيسة ، أشارت الساعة الضخمة الى انتصاف الليل .

(انه الميلاد ، أبانا) قال الصوت من خلف الألواح .

(أعتقد انه الميلاد الأحلى ، على الاطلاق) .

(الأحلى) .

نهض القس ثم خطى خارج مكعب الكرسي . انتظر لحظة لسماع شيء من الضجة ، من الحركة في الجانب المعاكس لكرسي الاعتراف . ما كان هناك أي صوت . مشى الى الباب عابساً ،فتحه ثم أنعم النظر في المهجع . لاشيء هناك . لا أحد . تهدل فكه وزحف الثلج الى مؤخرة رقبته . مد يده الى الخارج متحسساً الظلام . كان المكان فارغاً... حدق الى باب المدخل وأسرع الى هناك ليلقي نظرة .

كان الثلج يتساقط والشوارع مهجورة .

استدار عائداً ، رأى المرآة الطويلة التي تنتصب في مدخل الكنيسة . كان هناك رجل عجوز منعكساً في الزجاج البارد . رفع يده ودون تفكير تقريباً ، رسم علامة الغفران ، فما كان من الشبيه المنعكس عن المرآة الا ان رسم الحركة نفسها .

استدار القس العجوز ، للمرة الأخيرة ، ماسحاً عينيه ، ثم مضى باحثاً عن النبيذ .

في الخارج ، كان الميلاد ، مثل الثلج ، في كل مكان .

عربة توينبي

(جيد ! عظيم ! مرحى لي!)

قذف روجر شاموى بنفسه الى المقعد ، ثبت جسده بالأحزمة ، دوّر المراوح ثم وجه طائرته الهيليكوبتر سوبر ـ ٦ لتحلق في السماء الصيفية نحو الجنوب ، الى لاجولا .

(كم أنت محظوظ ؟)

كان في طريقه الى لقاء لا يصدق .

مسافر الزمن ، بعد مائة سنة من الصمت ،وافق على اجراء حوار . انه ، في هذا اليوم ، بعمر ١٣٠ سنة ، وفي هذه الظهيرة ، الساعة الرابعة بالضبط ، بالتوقيت الباسفيكي ، ستكون الذكرى السنوية لسفرته الأولى والوحيدة في الزمن . أجل ، قبل مائة سنة ، لوح كريج بنيت ستايلز ، دلف الى «ساعته الهائلة» كما سماها ، ثم تلاشى من الحاضر . كان الرجل الوحيد في التاريخ ، وظل كذلك ، الذي سافر في الزمن . وكان شاموي الصحفي الأول والوحيد ، بعد تلك السنين ، الذي دعي لشاي ما بعد الظهيرة . ثم ؟ الاعلان المحتمل لرحلة ثانية وأخيرة عبر الزمن . مسافر الزمن المح الى رحلة مثل تلك .

(أيها العجوز) قال شاموي (سيد كري بينيت ستايلز ، أنا قادم!)

مستسلمة للانفعالات ، قبضت الطائرة على الريح وامتطتها متجهة الى الشاطئ .

كان الرجل العجوز منتظراً اياه فوق سطح (دير الزمن) على حافة جرف الطيران الشراعي في لاجولا . الهواء محتشد بطائرات شراعية قرمزية ، زرق وليمونية ، حيث كان رجال شبان يصيحون ، بينما تنادي عليهم نساء شابات من حافة الأرض .

لم يكن ستايلز عجوزاً ، رغم سنواته الـ ١٣٠ . كان وجهه ، الناظر الى الهيليكوبتر ، أكثر اضاءة من وجوه الطيارين الشراعيين الحمقى الذين غيروا اتجاهاتهم أثناء ما كانت الطائرة تغطس الى الأسفل .

حوّم شاموي بطائرته لحظة طويلة ، مستمتعاً بالتأخير .

تحته كان الوجه الذي امتلك تصاميم الأحلام ، الأهواء التي لا تصدق ، مشاريع الغرائب لثوان ، ساعات ، أيام ، الذي قذف روحه فيها ليسبح ضد التيار عبر القرون . وجه مشرق يحتفل بعيد ميلاده الشخصي .ففي ليلة فريدة ، قبل مائة سنة ، عاد كري بينيت ستايلز من الزمن مفعم النشاط ، ليحدّث ملايين البشر في العالم عبر التلستار ، عن مشاهداته ، وليخبرهم عن مستقبلهم .

(قمنا بها!) قال . (عملناها! المستقبل ملكنا . أعدنا بناء المدن ، جددنا المدن الصغيرة ، نظفنا الأنهار والبحيرات ، نقينا الهواء ، أنقذنا الدولفينات ، ضاعفنا أعداد الحيتان ، أوقفنا الحروب ، وضعنا محطات شمسية عبر الفضاء لتضيء العالم ، استعمرنا القمر ، تحركنا نحو مارس ، ثم مجرة الفا سينتورى . قضينا على السرطان وأوقفنا الموت . عملناها ، يا ربي ، كثير الشكر — عملناها . آه ، اشعاع المستقبل ، وذرى الجمال ، يهلآن .)

عرض عليهم صوراً ، جلب لهم نماذج ، أعطاهم أشرطة وتسجيلات ، فلماً وأشرطة صوتية حول رحلته العجيبة . جن العالم من السعادة . ركض للقاء وصنع ذلك المستقبل ، لمعانقة المدن الموعودة ، انقاذ الكل ومشاركة الأرض مع مخلوقات البر والبحر .

صيحة الاستقبال التي أطلقها الرجل العجوز قدمت خلال الريح .

رد شاموي التحية وترك الطائرة تهبط الى الأسفل حيث الجو الصيفي .

خطا كرى بينت ستايلز ، بسنواته الـ -١٣٠ ، الى الأمام برشاقة ، ثم ، بشكل لا يصدق ، ساعد الصحفي الشاب على الخروج من طائرته ، فقد أصبح شاموي فجأة مصعوقاً أمام حرارة الاستقبال .

(لا أستطيع التصديق اني هنا) قال شاموي .

(انك هنا الآن)

بشكل استعراضي تقدم ستايل في ظل المراوح المرفرفة التي جعلته يبدو جريدة سينمائية لمستقبل مضى بصورة من الصور .

تبعه شاموي مثل كلب صغير يتبع جيشاً عظيماً .

(ما الذي تود معرفته ؟) سأل الرجل العجوز وهما يقطعان السطح عدة مرات .

(أولاً) همس شاموي ، مواصلاً حديثه (لماذا كسرت الصمت بعد مائة سنة ؟ ثانياً ، لماذا لي بالتحديد ؟ ثالثاً ، ماهو الاعلان الكبير الذي سوف تقوم به لما بعد الظهيرة هذه عند الساعة الرابعة ، الساعة المحددة لوصول ستايل الشاب من الماضي ، حيث ولبرهة خاطفة ، ستظهر أنت في مكانين اثنين ، المفارقة : الشخص الذي كنته ، والرجل الذي أنت عليه الآن ، يتقاطعان بساعة بهية نحتفل بها ؟)

(يا للروعة ، استمر!) ضحك الرجل العجوز .

(آسف) تورد وجه شاموي (كتبت ذلك الليلة الماضية . حسناً ، تلك هي الأسئلة .)

سوف تحصل على أجوبتك .) هز العجوز كوعه برقة . (كل شيء - في الوقت المناسب .)

(اغفر لي انفعالاتي) قال شاموي . (فضلاً عن ذلك ، انك غامض . كنت شهيراً ، محط أنظار العالم . ذهبت ، رأيت المستقبل ، رجعت ، أخبرتنا ، ثم دخلت العزلة . آه ، مؤكد ، لبضعة أسابيع ، جلت العالم بعروض التلغراف الاخبارية ، أظهرت نفسك في التلفزيون ، كتبت كتاباً ، أتحفتنا بفلم تلفزيوني رائع استغرق ساعتين ، ثم أغلقت على نفسك هنا . نعم ، عربة الزمن معروضة

في الأسفل ، والجموع مسموح لها رؤيتها ولمسها ظهيرة كل يوم ، لكن أنت نفسك رفضت الشهرة ـ)

(ليس كذلك) قاده العجوز على طول السطح . أسفل في الحديقة ، لا تزال الهيليكوبترات تصل ، حاملة أجهزة التلفزيون من كل أنحاء العالم لتصوير المعجزة في السماء ، تلك اللحظة التي ستتصل بها عربة الزمن من الماضي ، تومض ، ثم تغادر لزيارة مدن أخر قبل أن تتلاشى نحو الماضي . (لقد كنت مشغولاً ، كمصمم ، أساعد في بناء ذلك المستقبل الذي رأيته شاباً خلال وصولي الى غدنا الذهبي .)

وقفا برهة يراقبان الاستعدادات في الأسفل . طاولات واسعة جهزت للأكل والشرب . وجهاء من كل أقطار الأرض في طريقهم للوصول وتقديم الشكر ـ للمرة الأخيرة ربما ـ لهذا الاسطورة ، للمسافر الخرافي خلال السنين . (تعال) قال العجوز . (هل ترغب الجلوس في عربة الزمن ؟ أنت تعرف ، لم يقم بهذا أحد قبلك . هل ترغب أن تكون الأول ؟)

لم يكن الجواب ذا أهمية ، فبامكان العجوز رؤية عيني الشاب مشعتين ومبتلتين .

(هناك ، هناك) قال العجوز (آه ، رفقاً بي ، هناك .)

غطس بهما مصعد زجاجي نازلاً الى الأسفل ليستقر على أرضية قبو أبيض ، في المركز منه كان يقف ـ الجهاز الاسطوري .

(هناك .) مس ستايلز زرا فما كان من الغطاء البلاستيكي الذي غلف عربة الزمن مائة سنة الا الانفراج نحو الجانبين . هز العجوز رأسه وقال (امض . اجلس .)

تحرك شاموي نحو المركبة ببطء .

لمس ستايلز زراً آخر فأضيئت المركبة كما لو انها كهف من خيوط العنكبوت . لقد تنفست السنين وهمست بالذكريات . في عروقها الكريستالية أشباح . عنكبوت ضخمة نسجت خيوطها بليلة واحدة . كانت مفكرة وكانت حية . أمواج غير مرئية تأتي وتذهب خلال محركاتها . شموس

وأقمار أخفت مواسمها فيها . هنا ، طير الخريف أسماله ، هناك ، قدمت شتاءات بالثلوج التي أخرجت أزهار ربيع فألقتها الى حقول صيف .

جلس الشاب في المركز من هذا كله ، غير قادر على الكلام ، متمسكاً بذراعي مقعد القيادة .

(لا تخف) قال العجوز برقة . (لن أدعك تسافر .)

(لن أعارض .) رد شاموي .

تمعن العجوز بوجهه ، وقال (كلا ، أرى أنك لست خائفاً . أنت اليوم تشبهني قبل مائة سنة . انك بحق بمثابة ابني الفخري .)

أطبق الشاب عينيه لهذا الاطراء ، وتلألأت أجفانه بأنفاس الأشباح في العربة وهي تعده بالغد .

(حسناً ، ما رأيك بعربتي هذه ، «عربة توينبي» ؟) قال العجوز برشاقة ليكسر الانسحار المستولي على الشاب .

فصل العجوز الكهرباء وفتح الشاب عينيه .

(عربة «توينبي» ؟ لماذا ـ)

(مزيد من الأسرار ، هاه ؟ توينبي العظيم ، المؤرخ الرائع الذي قال ، اية مجموعة ، أي قوم ، أي عالم لا يجري للقبض على المستقبل سيحكم عليه بالموت والنسيان .)

(هل قال ذلك ؟)

(أو شيء من هذا القبيل . أجل . لذا ، أي اسم أفضل من هذا لعربتي ، هاه ؟ توينبي ، أينما تكون ، هذا هو جهازك ماسك المستقبل!)

قبض العجوز على كوع الشاب وقاده خارج العربة .

(يكفي هذا . تأخر الوقت . اقتربت لحظة الوصول العظيم ، ايه ؟ والاعلان النهائي الذي هز الأرض ، الاعلان الذي أطلقه مسافر الزمن العجوز ستايل ! اقفز !)

* * *

بعودتهم الى السطح ، رأيا الحدائق في الأسفل ، مكتظة بالمشاهير وأشباه المشاهير من جميع أقطار الأرض . كانت الطرق القريبة مزدحمة ، والسماء مليئة بطائرات الهيليكوبتر وطائرات أصغر حجماً . توقف السباحون الشرعيون منذ فترة طويلة وهم الآن واقفون على طول المنحدر كأنهم طيور عملاقة مشعة ، الأجنحة مطبقة ، الرؤوس الى الأعلى ، محدقة الى الغيوم منتظرة .

(كل هذا) دمدم العجوز (يا الهي ، بسببي .)

أحدّ الشاب بصره .

(الرابعة الا عشر دقائق . الوقت الوشيك للوصول العظيم . عفواً ، ذلك ما أطلقت عليه حين كتبت تقريراً عنك الى الجريدة . لحظة الوصول والمغادرة ، برمشة عين ، عندما غيّرت مستقبل العالم أجمع ، بعبورك الزمن ، من ليل الى نهار ، من ظلمة الى ضياء . كنت أعجب دائماً ـ)

(ماذا ؟)

تفحص شاموي السماء وقال (عندما مضيت قدماً خلال الزمن ، هل رأى وصولك أحد ؟ هل صادف أن تطلع « شخص ما » الى الأعلى ، كما تعرف ،ورأى جهازك محلقاً وسط الهواء ، هنا وفوق شيكاغو بعد ذلك ، ثم نيويورك وباريس ؟ ولا شخص ؟) (حسناً) قال مخترع عربة توينبي (لا افترض أن أحداً ما كان يتوقع ظهوري ! وحتى لو نفترض أنهم رأوا ، فهم بالتأكيد لن يدركوا كنه الشيء الذي ينظرون اليه . كنت حذراًعلى أية حال ، من المكوث طويلاً . احتجت الوقت المناسب فقط لتصوير المدن الجديثة ، البحار والأنهار النظيفة ، الهواء النقي ، الخالي من الدخان ، الشعوب المطمئنة ، الحيتان المحبوبة التي تم انقاذها . سريعاً تحركت ،برشاقة صورت وعدت أدراجي خلال السنين الى البيت . اليوم ، على النقيض من ذلك ،الأمر يختلف . ملايين ملايين العيون المحتشدة سوف تنظر الى الأعلى مع أعظم التوقعات .كلهم سيرمقون الأفق ، لم لا ، من ذلك الشاب الأحمق المحترق في السماء ، الى العجوز الأحمق هنا ، الذي لا يزال سعيداً لانتصاره ؟)

(سيفعلون ، آه ، حقاً سيفعلون!) قال شاموي.

فرقعة فلينة صرفت انتباه شاموي عن الناس المحتشدين في الحقول القريبة والطائرات الدائرة في السماء ، فأبصر ستايلز وهو يحمل قنينة الشمبانيا .

(نخبنا نحن الاثنين واحتفالنا الشخصي .)

أمسكا قدحيهما ، بانتظار اللحظة الحاسمة والمناسبة للشرب .

(الرابعة الا خمس دقائق . لماذا لم يسافر أي واحد آخر في الزمن عداك ؟) قال الصحفي الشاب .

(لقد وضعت حداً لهذا بنفسي .) أجاب العجوز وهو يضغط على السطح ، ناظراً الى الحشد في الأسفل .

(أدركت خطورة الأمر . كنت شخصاً يمكن الاعتماد عليه ، لكن ، يا الهي ، فكر بالأمر ـ لو تحكم بالزمن كائن من كان ، مروعاً الأمم ، موقعاً الذعر بين السكان ، مستغلاً معرفته بتفاصيل حياة نابليون أو هتلر ، فماذا ستكون الحصيلة ؟ لا ، لا . وافقت الحكومة طبعاً ـ كلا ، أصرت ـ على وضع «عربة توينبي» في مكان مغلق . كنتّ اليوم ، الأول والأخير الذي ترك بصماته على محركها . ظلت الحراسة مشددة ومستمرة ، عشرات الآلاف من الأيام ، لدفع السرقة عنها . كم الساعة الآن ؟)

(الرابعة الا دقيقة واحدة .)

واصلا العد . رفعا كأسي الشمبانيا .

(تسع ثوان ، ثمان ، سبع ـ)

كان الصمت مطبقاً على الحشد . همست السماء بالتوقعات ، ووجهت الكاميرات التلفزيونية الى الأعلى لتفحص وتبحث .

(ست ، خمس ـ)

تبادلا قرع الكؤوس .

(أربع ، ثلاث ، اثنتان ـ)

شربا

(ثانية واحدة !)

شربا الشمبانيا وهما يضحكان . نظرا الى السماء . حتى الهواء فوق خط

ساحل لاجولا كان ينتظر . انها هنا ، لحظة الوصول العظيم .
(الآن !) صاح الصحفي كساحر يصدر الأوامر .
لاشيء .
مرت خمس ثوان .
ظلت السماء فارغة .
مرت عشر ثوان .
كانت الآفاق منتظرة .
مرت عشرون ثانية .
لاشيء .
أخيراً ، استدار شاموي ليحدق بعجب الى الرجل العجوز الواقف جنب
بادله ستايلز النظرات وتنحنح وقال :
(أنا كذبت .)
(أنت ماذا ؟!) صرخ شاموي .
تحرك الحشد في الأسفل بصعوبة .
(كذبت .) قال العجوز ببساطة .
(كلا!)
(أجل ، صحيح . لم أذهب لأي مكان . لبثت في بيتي وجعلت
تبدو كذلك . ليس هناك عربة زمن - شيء شبيه لها فقط .)
(لكن لماذا ؟) صرخ الشاب متحيراً ، وهو يمسك الحاجز علـ
السطح . (لماذا ؟)
(أرى أنك تحمل جهاز تسجيل . شغله . نعم . تماماً . أريد ا
يسمعوا ما أقول . الآن .)
أنهى العجوز كأسه ثم قال :
(لاني نشأت في وقت ، لم يعد البشر يؤمنون بأنفسهم : الس
السبعينات ، الثمانينات . رأيت ذلك الجحود ، وهو سبب كف عن
أسباباً للعيش ، فتحركت يائساً غاضباً لذلك .

في كل مكان ، رأيت وسمعت الشك . في كل مكان ، تعلمت الانهيار . في كل مكان كان ثمة سأم مهني ، عقم ثقافي ، سخرية سياسية ، وما لم يكن عقماً وسخرية فشكوكية مفرطة وعدمية بدائية .)

توقف العجوز ، متذكراً شيئاً ما . انحنى وتناول من تحت الطاولة قنينة (بوركندي) حمراء عليها علامة ١٩٨٤ . بدأ خلال الحديث ، يعالج فلينتها برقة .

(سمّ لي أي شيء أقول لك انه كان موجوداً . الاقتصاد كان بزاقة . العالم حمأة . الاقتصاديات بقيت سراً لا يفسر . السوداوية كانت الطريق . استحالة التغيير كانت الموضة . نهاية العالم الشعار .

لاشيء يستحق العمل . تمضي الى الفراش في الحادية عشرة متخماً بالأخبار السيئة ، وتستيقظ صباحاً في السابعة على أخبار أسوأ . خلال النهار تمشي مجهداً ، وفي الليل تغرق بموج من الوباءات والطاعون .)

بسلاسة انقذفت الفلينة . الشراب المعتق منذ ١٩٨٤ جاهز للعرض . شمه مسافر الزمن وهز رأسه .

(لم يفد فرسان القيامة الأربعة(١) فقط ، الذين امتطوا الفضاء الى مدننا ، كان الفارس الخامس ، الأسوء بينهم جميعاً ، راكباً معهم : اليأس ، ملفعاً بحجب من الهزيمة ، صارخاً بنسخ مكرورة من كوارث الماضي ، من اخفاقات الحاضر وتوجسات المستقبل .

كانت النفايات السود تهمي فوقي ولا من بذور مشعة ، فأي نوع من الحصاد كان هناك لرجل يعيش في الجزء الأخير من القرن العشرين الخرافي ؟

منسياً كان القمر ، منسية مناظر مارس الحمر ، عين جوبيتر العظيمة ، حلقات ساتورن المتصلبة . رفضنا الراحة ، ووقفنا ننشج على قبر وليدنا ، وكان الوليد « نحن » .)

(هكذا كانت الأمور ، قبل مائة سنة ؟) سأل شاموي .

(نعم .) أمسك العجوز بقنينة الخمرة كما لو كانت تحتوي على البرهان .

سكب بعض الشراب في الكأس ، نظره ، شهق ، ثم تابع . (لقد رأيت الجريدة السينمائية ، وقرأت كتب ذلك الوقت . انت تعرفها جميعاً .

اوه ، طبعاً ، كان هناك عدد من اللحظات المضيئة . حين أسلم «سالك»(٢) أطفال العالم الى الحياة . أو ذلك الليل عندما حط «ايكل»(٣) وخطا الجنس البشري خطواته العظيمة على القمر . لكن في الأذهان ، وعلى أفواه الكثيرين ، ظل الفارس الخامس محتفى به باصرار . مع آمال عالية ، أو هكذا بدت ، بانتصاره . حيث الجميع كانوا مقتنعين بكآبة ، ان أحكام توقعاتهم صادقة منذ اليوم الأول . حيث النبوءات الشخصية قد أعلنت . نحن حفرنا قبورنا ونحن جهزنا أنفسنا للاستلقاء فيها .)

(ولم تكن تسمح بذلك ؟) تساءل الصحفي الشاب .

(تعلم اني لا أسمح .)

(ولهذا بنيت «عربة توينبي» -)

(ليس في مرة واحدة . تطلب الجلوس فيها سنين من العمل .)

توقف العجوز ليرج الخمرة المعتقة ، تطلع فيها وراح يرتشف مغمض العينين .

(تلك الفترة ، كنت غارقاً ، يائساً ، أبكي أواخر الليالي بصمت ، وأفكر ، ما الذي يمكنني عمله لانقاذنا من أنفسنا ؟ كيف أنقذ أصدقائي ، مدينتي ، ولايتي ، بلدي ، جميع العالم ، من هذا اليأس ؟ حسناً ، في منتصف ليلة من الليالي كنت داخل المكتبة ، وبينما كنت أبحث في الرفوف ، لامست يدي كتاباً رائعاً لـ هـ . جـ . ويلز . شبيه الشبح ، سميت آلته الزمنية على مر السنين . «سمعت» . فهمت . أصغيت حقاً . ثم صممت . بنيت . سافرت ، أو هكذا «بدا» . البقية تاريخ ، كما تعلم .)

شرب مسافر الزمن خمرته ، وفتح عينيه .

(يا الهي ، العجب ، العجب ـ) همس الصحفي هازاً رأسه .

في الحديقة السفلى والحقول وراءها وعلى الطرق وفي الهواء ، كان الهياج هائلاً . ملايين لا تزال تنتظر . أين مضى المسافر العظيم ؟

(حسناً ، والآن) قال العجوز وهو يملأ كأساً ثانية من الخمر للصحفي الشاب . (ألست بارعاً ؟ صنعت المحركات ، بنيت نماذج مصغرة للمدن ،

البحيرات ، البرك ، البحار . أنشأت تصاميم للسماوات جعلتها شفيفة كالكرستال ، تكلمت الى الدلافين ، لعبت مع الحيتان ، زورت أشرطة ، اسطرت أفلاماً . آه ، تطلب العمل مني أعواماً ، أعواماً من العرق والتجهيزات السرية قبل أن أعلن سفري ، ذهابي وايابي بالأخبار الجيدة!)

شربا بقية الخمرة المعتقة . كان هناك همهمة من الأصوات . الناس المحتشدون في الأسفل ، كانوا كلهم ينظرون الى السطح .

لوح لهم مسافر الزمن واستدار ليواصل الحديث :

(الأمر يعود لك منذ الآن . أنت تملك الشريط ، عليه صوتي ، طازجاً تماماً . هذه ثلاثة أشرطة اضافية ، مع كامل التفاصيل . هنا كاسيت فلم يروي كل حيلتي الملهمة . هنا مخطوطة نهائية . خذ ، خذها جميعاً ، تسلمها . أرشحك لتكون ابني كي تزيل غموض الأب . سريعاً .)

شعر شاموي بالعالم ينهار من حوله ، وكان يرافق العجوز الذي جرّه جراً الى المصعد ثانية . لم يكن يعرف ، هل يضحك أم يبكي ، لذلك أطلق في النهاية صوتاً صاخباً عظيماً .

مندهشاً ، جاوبه الشيخ بصرخة مماثلة ، وكانا يخطوان خارج المصعد متقدمين نحو « عربة توينبي » .

(انك تدرك المسألة ، بني ، أليس كذلك ؟ الحياة كانت دائماً كذباً على أنفسنا! كأطفال ، رجال ، شيوخ . كصبايا ، فتيات ، عجائز ، نكذب بنعومة ثم نحيل الكذب حقيقة . ننسج الأحلام ونسخّر لها الأذهان والأفكار والأجساد وكل المستلزمات . كل شيء ، في النهاية ، وعد . ما يبدو كذبة هو في الحقيقة حاجة متداعية ، راغبة بالولادة . هنا . هكذا الأمر .)

ضغط على الزر فانفتح الغطاء البلاستيكي ، وضغط آخر فابتدأت ماكنة الزمن بالدوران ، ثم دلف سريعاً ليقذف بنفسه على مقعد العربة .

(أدر المفتاح الأخير ، أيها الشاب !)

(لكن ـــ)

(إنك تفكر ، اذا كانت ماكنة الزمن خدعة ، فلن تعمل ، ما فائدة

ادارة المفتاح ، صحيح ؟ أدره على أية حال . «هذه» المرة ، «سوف» تعمل!)

استدار شاموي ، وجد مفتاح السيطرة ، أمسك به ، ثم نظر الى كرى بينت ستايلز .

(لا أفهم . الى أين تذهب ؟)

(لماذا ؟ لأتوحد مع الأزمان . لأنوجد الآن ، في الماضي العميق فقط .)

(كيف « يكون » ذلك ؟)

(صدقني ، سوف يحصل الأمر هذه المرة . وداعاً ، عزيزي الشاب اللطيف ، الرقيق .)

(وداعاً .)

(الآن . خبرني عن اسمي .)

(ماذا ؟)

(انطق اسمي وأدر المفتاح .)

(مسافر الزمن ؟)

(نعم ! الآن !)

سحب الشاب المفتاح . اهتزت الآلة ، دارت ، توهجت بالطاقة .

(آه) قال العجوز مطبقاً عينيه . كان فمه يبتسم برقة . (نعم .) وسقط رأسه على صدره .

أعول شاموي ، نقر المفتاح غالقاً اياه ثم تقدم الى الأمام لينزع السيور التي تربط العجوز الى آلته .

توقف وسط انشغالاته تلك ولامس رسغ مسافر الزمن . وضع أصابعه تحت الرقبة متفحصاً النبض ثم تأوه . بدأ يبكي . كان العجوز ، قد رجع في الحقيقة ، الى الزمن ، الذي كان اسمه الموت . انه الآن مسافر في الماضي الى الأبد .

تراجع شاموي الى الوراء وشغل الآلة مرة أخرى . اذا كان العجوز قد مضى في سفره ، دع الآلة ـ صورياً على الأقل ـ تذهب معه . أطلقت الآلة همهمة تعاطف .

نارها ، نارها الشمسية المشعة ، سرت في جميع أسلاكها ومحولاتها العنكوبتية وأضاءت خدي وحاجبي المسافر العتيق الواسعين ، الذي بدأ رأسه يهتز باهتزاز الآلة ، وابتسامته ، وقد سافر الى الظلمة ، كانت ابتسامة طفل فائق الرضى . وقف الشاب ماسحاً خديه بقفى كفيه فترة طويلة ، بعدها استدار تاركاً الآلة ، قاطعاً الغرفة . ضغط على زر المصعد الزجاجي ، وبينما هو في الانتظار ، أخذ أشرطة مسافر الزمن وأفلامه من جيوب السترة ودفعها واحداً بعد واحد الى فتحة النفايات الموجودة في الجدار .

انفتح باب المصعد ، خطا الى الداخل ، انطبق الباب . همهم المصعد ، للحظة ، كأي آلة زمن أخرى ، صاعداً به الى عالم مصعوق ، منتظر ، رافعاً اياه الى قارة لامعة ، الى أرض مستقبل ، الى كوكب حي عجيب . .

كان رجل واحد قد خلقه بكذبة واحدة .

---

١) فرسان القيامة الأربعة : مأخوذة عن رؤيا يوحنا / الكتاب المقدس/ وهم يمثلون الكوارث والأمراض والموت . . الخ . م .

٢) سالك : العالم الذي اكتشف مضاد شلل الأطفال . م .

٣) ايكل : اسم العربة الصغيرة التي حطت على سطح القمر .م .

المدينة

انتظرت المدينة عشرين الف سنة .

سبح الكوكب في الفضاء ونمت زهور الحقل ثم تلاشت ، ولازالت المدينة في انتظارها : تدفقت أنهار الكوكب ثم جفت واستحالت الى غبار . لازالت المدينة في انتظارها . الريح التي كانت هائجة ومتوحشة استدارت لترق وتصفو ، والغيوم التي كانت يوماً مكتنزة ماطرة لم تلبث ان تحولت الى غيوم هائمة في السماء غارقة في البياض .

لا زالت المدينة على انتظارها .

انتظرت المدينة بشبابيكها وجدرانها البركانية السود وأبراجها العالية وبريجاتها الخالية من الاعلام ، وشوارعها المهجورة ، وقبضات أبوابها التي لم تمسها طبعات الأيدي ولم تلامسها نفايات الورق . انتظرت المدينة وهي تفتل في الفضاء متبعة مدارها حول شمس بيضاء مزرقة ، فيما كرت الفصول من جليد الى نار ثم لترجع جليدية وبعدها الي حقول خضر ومروج صيف مصفرة .

كانت ما بعد ظهيرة صيفية في منتصف الألف العشرين حين كفت المدينة عن الانتظار .

ظهر صاروخ في السماء .

حوم الصاروخ ، استدار ، رجع ، ثم حط على أرض المرج مسافة خمسين متراً عن جدار بركاني .

كانت خطوات لأقدام ثقيلة على الحشائش الرقيقة ونداءات أصوات رجال داخل الصاروخ الى آخرين خارجه .

(جاهز ؟)

(حسناً أيها الرجال . انتبهوا ! الى المدينة . جيسن ، أنت وهوشنسون راقبوا المقدمة . افتحوا عيونكم .)

عبر جدرانها السود فتحت المدينة خياشيم سرية ، سحبت أوردة ماصة مدفونة عميقاً في جسد المدينة عاصفة من الهواء خلل القنوات ، دافعة اياها الى مصاف مهدبة وجامعات غبار وسلسلة من الملفات والأنسجة التي كانت متألقة بضوء فضي . تكرر المص الهائل عدة مرات ، وتسربت الروائح من المرج نحو المدينة .

رائحة نار ، رائحة نيزك متهاو ، ومعدن ساخن . سفينة قادمة من عالم آخر . رائحة نحاس ، رائحة مسحوق محترق ، كبريت ، مخلفات صاروخية .

تلك المعلومات دونت على أشرطة ثم نقلت بمسننات الى شقوق ، لتنزلق أخيراً عبر السنة الى آلات ثانية .

كلاك كلاك كلك . كلاك كلاك كلك .

كان صوت الحاسوب أشبه بصوت بندول . خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة . تسعة رجال ! طابعة سريعة كتبت الرسالة على شريط منزلق اختفى في مكان ما .

كلاك كلاك كلك . كلاك كلاك كلك .

كانت المدينة تترصد الوقع الناعم لجزماتهم المطاطية .

اتسعت خياشيم المدينة العظيمة مرة أخرى .

رائحة زبدة ، في هواء المدينة ، من الرجال المتسللين ، سرت بشكل غامض مويجات شذى خفيف الى الأنف الكبير لتنحل بعدها الى ذكريات حليب ، وجبنة وايس كريم وزبدة : البخار غير المرئي للعصور الزراعية .

كلك كلك .

(بحذر يا رجال !)

(جونز ، اخرج بندقيتك . لا تكن أحمق!)
(المدينة ميتة ، لم القلق ؟)
(لا تستطيع الجزم .)

في هذه اللحظة ، وعلى ضجيج الكلام ، استيقظت اذان المدينة ، بعد قرون من التنصت الى الريح وهي تهب ثم تهمد ، تساقط الأوراق من الشجر ونمو العشب برخاء بعد ذوبان الثلوج ، زيتت الآذان نفسها وشدّت أوتارها وراحت تتسمع لخفقات قلوب الدخلاء : الخفقات الشبيهة بارتعاش جناحي فراشة . الآذان أصغت والأنف تنشق كتلة هائلة من الروائح .

نز العرق من الرجال الخائفين . كان ثمة بحيرات من العرق تحت الأذرع ، وتندت أيضاً أيديهم الماسكة للبنادق .

تنشق الأنف الهواء وتفحصه ، مثل خبير في الخمور المعتقة .

كلك كلك كلاك .

انحدرت المعلومات الى الأسفل نحو أشرطة موازية . تعرق ، كلور بنسبة كذا ، كبريت ، نايتروجين ، امونيا ، نترات ، وهكذا ، عضويات ، سكر ، حامض اللبنيك ، هناك!

دقت أجراس ، قفزت أرقام صغيرة .

زفر الأنف ، طارداً الهواء المفحوص . الأذن العظيمة تنصتت .

(كابتن ، أعتقد أننا يجب ان نعود الى الصاروخ .)
(أنا أعطي الأوامر ايها السيد سمث!)
(نعم ، سيدي .)
(أنت ، هناك! هل ترى شيئاً ؟)
(لاشيء سيدي . يبدو انها ميتة منذ وقت طويل!)
(انظر سميث ! لاشيء يخشى منه .)
(أنا لا أحبها . لا أدري لماذا . ألا تشعر انك رأيت المكان سابقاً ؟ حسناً ، المدينة مألوفة جداً .)

(لا يمكن . ان هذا النظام الشمسي يبعد بلايين الأميال عن الأرض ، من المستحيل أننا كنا هنا قبلئذ . صاروخنا ، هو الصاروخ الضوئي الوحيد في الكون .)

(هذا ما أحسه سيدي ، على أية حال . اعتقد اننا يجب أن نغادر .)

الخطى بدت مترددة . ثمة فقط ، صوت تنفس الغرباء في الهواء الساكن .

الأذن سمعت وتأهبت . انزلقت الدوارات ، والسوائل سرت في شقوق ناعمة نحو صمامات ومراوح . المعادلات والاستنتاجات ، تبعت احداهما الأخرى . بعد دقائق ، واستجابة لايعازات الأنف والأذن ، وعبر فتحات عملاقة في جدران المدينة تدفق على الغرباء بخار طازج .

(شم ذلك ، سمث! هاه . عشب أخضر . هل شممت شيئاً أطيب منه قبل اليوم ؟ يا الهي ، أريد أن أبقى هنا لأجل ذلك فقط .)

تسلل الى الرجال الواقفين كلوروفيل غير مرئي .

(آآآه .)

خطى الأقدام تلاحقت .

(ليس في الأمر ما يريب ، هاه ، سمث ؟ هيا !)

الأذن والعين حررتا بلايين الكسور ، نجحت الكسور المضادة . العمليات في طريقها الى الانجاز .

العيون الغائمة للمدينة تحركت خارج الضباب والسديم .

(كابتن ، الشبابيك!)

(ماذا ؟)

(شبابيك البيت هناك! رأيتها تتحرك !)

(لم أرها .)

(انحرفت . غيرت ألوانها . من السواد الى البياض .)

(انها بالنسبة لي كأي شبابيك عادية .)

ثمة أشياء نظمت بؤرتها . في البرك الميكانيكية للمدينة غطست أذرع

مزيتة ، ودارت دواليب وتحركت مغاطس ملأى بالنفط . تثنت اطارات النوافذ . راحت النوافذ تومض .

اسفل ، في الشارع ، سار رجلان في المقدمة ، تبعهم على مسافة قصيرة ، سبعة آخرون . كانت ملابسهم بيضاء ، وجوههم وردية كما لو انها مصفوعة ، وعيونهم زرقاً ، مشوا باستقامة ، حاملين فوق أفخاذهم أسلحتهم المعدنية . كانوا يرتدون الأحذية . كلهم رجال بعيون ، وآذان ، وأفواه ، وأنوف .

النوافذ اهتزت . النوافذ شفت . اتسعت بشكل غيرمحسوس ، مثل حدقات عيون لا تحصى .

(انني أقول لك كابتن ، انها النوافذ !)

(استمر .)

(أنا راجع سيدي .)

(ماذا ؟)

(أنا راجع الى الصاروخ .)

(سيد سمث!)

(لا أريد أن أسقط في أي فخ!)

(هل تخشى من مدينة فارغة ؟)

ضحك الآخرون بصعوبة .

(هيا ، اضحكوا !)

كان الشارع مرصوفاً بالحجارة ، كل حجارة بعرض ثلاثة أنجات وطول ستة انجات . بحركة غير مميزة سجل الشارع أوزان الغرباء .

في خلية ميكانيكية سجل ذراع أحمر أوزان الرجال ١٧٨٠٠٠ باوند ، ٢١٠ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ١٩٨ ، ثم انزلق شريط التسجيل الى الظلام الدامس .

المدينة اللحظة مستيقظة تماماً .

الأوردة امتصت الهواء ولفظته ، رائحة التبغ من أفواه الغرباء ، عطور الصابون الأخضر من الأيدي ، حتى كرات العيون بدت لها رائحة خاصة .

المدينة دققت في ذلك ، وشكلت أرقاماً شكلت هي الأخرى أرقاماً ثانية . الشبابيك الكرستالية أومضت . الأذن وترت أجهزتها السمعية ، كل حواس المدينة احتشدت مثل تساقط ثلج غير مرئي ، حاسبة التعرق وضربات القلب ، مصغية ، مراقبة ، متذوقة .

الشوارع كانت مثل الألسنة ، وأينما مر الرجال ، ينغل طعم أعقابهم بين الصخور ليسجل على الأصباغ . الحسابات الكيميائية تلك ، راحت تجمع بحذق ، لتلحق بالنتائج الكلية التي تنتظر الحساب النهائي بين دواليب دائرة وأذرع هاسة .

خطى . ركض .

(ارجع ! سمث !)

(كلا ، الرحمة !)

(امسكوه ، يا رجال!)

الخطى تندفع .

الفحص الأخير . المدينة ، وقد أصغت ، راقبت ، تذوقت ، شعرت ، وزنت ، ورازت ، ينبغي ان تنجز المهمة الأخيرة .

قذف شرك عريض في الشارع . الكابتن ، ومن غير ان يراه أحد ، اختفى أثناء الجري .

معلقاً من رجليه ، احتزت شفرة رقبته ، وأخرى فتحت صدره ، ثم أفرغت أحشاؤه الداخلية وعرضت على طاولة تحت الشارع . مات الكابتن في غرفة سرية . حدقت مكرسكوبات كرستالية عظيمة في جدائل العضلات الحمر . أصابع غامضة سبرت القلب الذي لما يزل ينبض . رزم القطع الجلدية صفت على الطاولة بينما كانت الأيدي تزيل أجزاء من الجسد بخفة لاعب شطرنج ، مستخدمة أذرعاً حمراً وقطعاً حمراً .

أعلى في الشارع تراكض الرجال . ركض سمث وتعالت خلفه الصيحات .

صرخ سمث ، وتحت في الغرفة السرية راح الدم يتدفق الى أوان ، خضته ، دومته ، ثم دفعته الى شرائح شفافة موضوعة تحت ميكروسكوبات

أخرى ، حيث أجريت مزيد من الحسابات ،وأخذت درجات الحرارة ، اما القلب فقطع الى سبعة عشر قطعة ، الكبد والكليتان نصفتا الى نصفين بخبرة فائقة . أفرغ الدماغ من الجمجمة ، وسحبت الأعصاب مثل أسلاك قديمة . العضلات اقتلعت ،وخلال ذلك ، وفي القبو الكهربائي للمدينة أجرى العقل الأكبر حساباته النهائية ثم بدأت الآلات تهمد بعدها شيئاً فشيئاً .

النتيجة .

انهم رجال . رجال من عالم بعيد ، من كوكب بعينه ، وان لهم عيونهم الخاصة ، اذانهم الخاصة ، ويمشون على أرجل بطريقة معينة ويحملون أسلحة . انهم يفكرون ويقاتلون ، ولهم قلوبهم الخاصة وكل الأعضاء الأخرى كما جاء بالضبط في السجل المدون منذ زمن بعيد .

في الأعلى ، ركض الرجال في الشارع متجهين الى الصاروخ .

ركض سمث أيضاً .

النتيجة .

انهم أعداؤنا . انهم من انتظرنا عشرين الف سنة لرؤيتهم مرة ثانية . انتظرناهم كي ننتقم . كل شيء واضح . رجال الكوكب البعيد الذي يدعى الأرض ، الذين أعلنوا الحرب على كوكب تولان قبل عشرين الف سنة ، وأبقونا في الأسر وجروا علينا الخراب وحطمونا بالوباء العظيم . لقد هربوا الى مجرة أخرى خوفاً من ذلك الوباء الذي نشروه هم أنفسهم بعد ان نهبوا عالمنا . لقد نسوا تلك الحرب وذلك الزمن ، ونسونا نحن أيضاً . لكننا لم ننسهم . هؤلاء أعداؤنا . هذا أكيد . انقضى انتظارنا .

(سمث ، عدا)

سريعاً على الطاولة الحمراء ، ومع جسد الكابتن المفرغ الشبيه بنسر محلق ، راحت أياد جديدة تباشر عملها . في الجوف الرطب وضعت أعضاء من النحاس ، الرصاص ، الفضة ، الألمنيوم ، المطاط والحرير . عناكب حاكت أنسجة ذهبية وثبتتها على الجلد ، وفي القحف ثبت دماغ من البلاتين يومض بنيران زرقاء ، ثم مدت الأسلاك خلال الجسد الى

الذراعين والأطراف . في لحظة قصيرة خيط الجسد ، ودهنت الحزوز بالشمع ، حول الرقبة والحنجرة والقحف . تمام ، طازج ، جديد .

جلس الكابتن وثنى ذراعيه .

(توقف!)

عاد الكابتن الى الظهور في الشارع ، رفع بندقيته وأطلق النار .

سقط سمث ، رصاصة في قلبه .

استدار الرجال الآخرون .

ركض الكابتن نحوهم .

(ذلك الأحمق ! يخاف من مدينة!)

حدقوا في جسد سمث تحت أقدامهم .

حدقوا في قبطانهم ، وأعينهم تتسع وتضيق .

(اصغوا الي!) قال الكابتن . (عندي أمر مهم سأخبركم به .)

الآن المدينة التي وزنت وتذوقت وشمت الغرباء ، المدينة التي استخدمت كل طاقتها المخزونة ، جهزت نفسها لاستخدام قدرتها الأخيرة ، طاقة الحديث . لم تتكلم بغضب مع جدرانها الصماء أو أبراجها ،ولا مع أزقتها الحجرية أو حصونها الميكانيكية . تكلمت بصوت هادئ على لسان رجل واحد .

(انني لم أعد قبطانكم .) قال . (كما انني لم أعد بشراً .)

تراجع الرجال .

(أنا المدينة .) قال مبتسماً . (انتظرتكم عشرين الف سنة ، انتظرت عودة أبناء أبناء أبناء الأبناء .)

(سيدي القبطان!)

(دعني أكمل . من بناني ؟ المدينة . الناس الذين ماتوا بنوني . الجنس القديم الذي عاش هنا . البشر الذين تركهم أبناء الأرض يموتون بوباء أشبه بالطاعون ، لاشفاء منه . أبناء ذلك الجيل المنقرض ، حالمين بعودة الرجال الأرضين ، بنوا هذه المدينة ، كان اسمها ولايزال الانتقام ، القائمة على كوكب الظلمة ، قرب ساحل بحر القرون ، تحت جبال الموت . شعري كل ذلك . أريد

من المدينة ان تكون آلة مضبوطة ، كياناً شفافاً ، قرن استشعار لتفحص مسافري الفضاء . لم يحط على هذا الكوكب ، وخلال عشرين الف سنة سوى صاروخين . الأول من مجرة بعيدة تدعى آنت ، رواد تلك السفينة سرعان ما وزنوا ، وفحصوا ، وتبين انهم غير مذنبين ، فأطلق سراحهم من غير أذى . وكذلك مع زوار المركبة الثانية . لكن اليوم! وبعد انتظار طويل ، جئتم . الانتقام سينفذ حتى أدق التفاصيل ، أولئك الرجال كانوا قد ماتوا منذ عشرين الف سنة ، لكنهم تركوا المدينة بانتظاركم .)

(سيدي القبطان ، انك لست على ما يرام . ربما ينبغي لك العودة الى السفينة .)

اهتزت المدينة .

انفتح الشارع وسقط الرجال ، صارخين .

بسقوطهم رأوا الشفرات اللامعة تومض لملاقاتهم!

الوقت مر . فتعالت النداءات :

(سمث ؟)

(حاضر !)

(ينسن ؟)

(حاضر !)

(جونس ، هوشنسون ، سبرنكر ؟)

(حاضر ! حاضر ! حاضر!)

وقف الجميع بجانب باب الصاروخ .

(سنعود الى الأرض حالاً .)

(نعم ، سيدي!)

كانت رتوق رقباتهم لا ترى ،وكذلك القلوب النحاسية والأعضاء الفضية والأسلاك الذهبية الناعمة لأعصابهم . كان هناك هسيس كهربائي ينبعث من رؤوسهم .

(الى البديل!)

تسعة رجال تعاونوا على وضع قنابل الوباء المذهبة في بطن الصاروخ .

(هي جاهزة لاسقاطها على الأرض .)

(نعم سيدي!)

اصطفقت نفاثات الصاروخ . قفز الصاروخ الى السماء .

كما تضمحل الزوابع ، استلقت المدينة على الحقول الصيفية . عيونها الزجاجية أغلقت . استرخت الأذن ، وتوقفت حركة الأنف ، وكفت الشوارع عن الوزن أو الروز ، فيما استراحت المكائن في برك الزيت .

غاب الصاروخ في السماء .

ثم استقبلت المدينة فخامة الموت ، ببطء ومتعة .

الاقتسام الطويل

(لقد « غيرتي » القفل!)

بدا مصعوقاً ، وهو واقف في الباب يتطلع الى مقبضه وكان يعبث به باحدى يديه فيما كانت الأخرى تطبق على مفتاح الباب القديم باحكام .

سحبت يدها عن الجانب الآخر من المقبض ثم مشت مبتعدة .

(لا أرغب بدخول أحد من الغرباء .)

(غرباء!) صرخ . من جديد هز المقبض ثم وضع مفتاحه متأففاً في مكانه المألوف وأغلق الباب .

(نعم ، أعتقد أننا هكذا . غرباء .)

لم تجلس بل وقفت في منتصف الغرفة ناظرة اليه .

(دعنا « نشرع » بالعمل .) قالت .

(أرى أنك « بدأتي » بذلك . يا يسوع .)

تطلع الى الكتب وقد قسمت على الأرضية الى كدسين متقنين بشكل لا يصدق . (أما كان باستطاعتك انتظاري ؟)

(فكرت أني سأوفر علينا الوقت .) قالت ثم أومأت برأسها الى اليسار ، والى اليمين . (هذا لي . ذاك لك .)

(دعيني أنظر .)

(تفضل . لكن كيفما نظرت فالقضية محسومة ، هذا لي ، وذاك لك .)

(أوه ، لا يمكن!) خطا الى الأمام بتثاقل وبدأ يعيد تقسيم الكتب ، آخذاً اياها مرة من الكدس اليمين ومرة من الكدس اليسار . (دعينا نبدأ مجدداً .)

(ستفسد كل شيء!) قالت (تطلّب تصنيفها مني ساعات .)

(حسناً) قال لاهثاً وهو يركع على ركبة واحدة . (دعينا نصرف ساعات «أخر» . «التحليل الفرويدي» ! انظر ؟ ما الذي جاء به الى كدسي ؟ أنا أكره فرويد ؟)

(فكرت أني سأتخلص منه .)

(تتخلصين منه ؟ استنجدي بارادة الله . لا ترمي الكتب الغبية الى الغرباء ، أعني زوجك السابق . دعينا نجعلها ثلاثة أكداس . كدس لي ، وكدس لك ، والثلاث لجيش الخلاص(١) .

(خذ حصة جيش الخلاص «معك» ثم اتصل بهم .)

(لماذا ، ألا تستطيعين الاتصال بهم من هنا ؟ يا الهي ، أنا لا أريد جرجرة تلك الكتب الكسيحة عبر المدينة . ألا تكون الأمور أبسط ـ)

(طيب ، طيب ، ثرثرة ، ثرثرة . لكن توقف عن خلط الكتب . انظر الى كدسي ثم الى كدسك وبعدها ان لم توافق ـ)

(أرى نسختي من ثوربر في جانبك ، ما الذي تعمله هناك ؟)

(أهديتها لي بمناسبة الميلاد قبل عشر سنوات ، ألا تذكر ؟)

(اوه) قال وتوقف . (أكيد . طيب ـ ما الذي جاء بولاً كاثر الى هناك ؟)

(أعطيتني اياهابعيد ميلادي قبل اثنتي عشرة سنة .)

(يبدو لي أني أفسدتك كثيراً .)

(اللعنة لقد فعلت حقاً ، قبل وقت طويل . ليتك واصلت افسادي . ربما ما كان علينا اليوم أن نقف لاقتسام الكتب اللعينة .)

شاع في وجهه الدم واستدار ليركل الكدس بهدوء ورقة ، بمقدمة حذائه .

(كارين هورني ، حسناً ، مضجرة ، أيضاً . يونغ ، أفضّل يونغ أكثر ، فعلت دائماً ، لكن بامكانك الاحتفاظ به .)

(شكراً بليون مرة .)

(كنت دائماً من النوع الذي يفكر كثيراً لكن من دون مشاعر .)

(الشخص الذي يدور حاملاً همومه على ظهره لا ينبغي عليه الكلام حول المشاعر والأفكار . الشخص الذي يمتلك علامات ضرب على رقبته ـ)

(لقد انتهينا من القضية وأصبحت في عداد الماضي .) ثنى ركبته من جديد وأخذ يمرر يده على العناوين .

(هنا كاثرين آنا بورتر «سفينة الحمقى» ، يا للجحيم ، كيف أمكنك اكمال قراءتها ؟ انها «لك» . جون كولير «قصص قصيرة» ! أنت «تعرفين» انني أحب عمله ! ستذهب الى كدسي!)

(انتظر !) قالت .

(كدسي .) سحب الكتاب وقذفه على الأرضية .

(كلا ، ستؤذي الكتاب .)

(انه لي الآن .) أعطاه دفعة أخرى .

(سعيدة أنا لانك لا تشتغل قيماً في المكتبة العامة .) قالت .

(هنا ، غوغول ، مضجر ، سول بيلو ، مضجر ، جون ايدك ، أسلوب جميل لكن دون أفكار .مضجر ، فرانك أو كونور ؟ لابأس ، لكن بامكانك الاحتفاظ به . هنري جيمس ؟ مضجر ، تولستوي ، لا أحد يستطيع تمييز الشخصيات مطلقاً ، ليس مضجراً ، لكن مشوش للذهن ، احتفظي به . الدوس هكسلي ؟ هيْ ، انتظري ! «تعلمين» أعتقد ان مقالاته أفضل من رواياته !)

(لا تستطيع الفصل!)

(بالفعل لا أستطيع . نقطعه عند المنتصف . تأخذين رواياته ، آخذ مقالاته .)

أمسك ثلاثة كتب وجمعها على السجادة .

خطت الى الأمام وبدأت تتفحص الكدس الذي نحته له جانباً .

(ماذا تفعلين ؟) صاح .

(فقط أعيد التفكير بما أعطيته لك . أعتقد أني سأسترجع جون شيفر .)

(يا الهي ! ما الفائدة ؟ آخذ «هذا» ، تمسكين «ذلك» ؟ ارجعي شيفر .

هنا بوشكين ، مضجر ، روبرت ـ كرليت ، فرنسي مضجر ، كنود هامسن ؟ اسكندنافي مضجر .)

(أوقف انتقاداتك . تجعلني أشعركما لو رسبت اللحظة بامتحان الأدب . تعتقد أنك تأخذ جميع الكتب الجيدة وتترك لي التافهة ؟)

(ربما . جميع أولئك الكتاب يلتقطون النسالة من صرر بعضهم البعض ، ولا يفعلون شيئاً سوى تسويد الصفحات!)

(أنا لا أفترض أنك تجد شارلي ديكنز تافهاً ؟)

(ديكنز ! ؟ لم نمتلك أي واحد مثله في هذا «القرن» !)

(الحمد لله ! ستلاحظ أنني أعطيتك كل روايات توماس لوف بيكوك . قصص الخيال العلمي لعظيموف . كافكا ؟ بانال .)

(«الآن» من يشغل نفسه باحراق الكتب ؟) انحنى بغضب ليدرس كتبها أولاً ، ثم كتبه بعد ذلك . (بيكوك ، يا الله ، واحد من أعظم الساخرين على مر العصور . كافكا ؟ عميق . مجنون ، لامع . عظيموف ؟ عبقري!)

(هو ـ هووم ! يا يسوع) جلست ووضعت يديها على فخذها ثم مالت الى الأمام ، مشيرة برأسها الى تلال الأدب .

(أعتقد أنني بدأت أرى سبب اخفاق حياتنا . الكتب التي تقرأها ، قليلة الأهمية لي . الكتب التي أقرأها ، لا تعني لك شيئاً . هكذا . لماذا لم نلتفت الى هذا قبل عشر سنوات ؟)

(كثير من الأشياء لا يلاحظها المرء حين يكون ،) تمهل قليلاً وأكمل (عاشقاً .)

الكلمة سقطت من الفم . تراجعت الى الوراء في كرسيها ، بصعوبة ، وجمعت يديها ثم وضعت قدميها معاً بأناقة .

حدقت اليه بمنتهى الألق في عينيها .

أشاح بوجهه بعيداً وبدأ يذرع الغرفة بخطى ثقيلة . (أه ، اللعنة) قال رافساً أحد كدسي الكتب ، ثم مشى ليرفس الآخر ، بهدوء وبساطة . (أنا لا أهتم لما يحتويه هذا الكدس أو ذاك ، لا أهتم ، أنا فقط لا ـ)

(هل تملك مكاناً في سيارتك لكل هذا ؟) قالت بهدوء ، وهي لا تزال ناظرة اليه .

(أظن ذلك .)

(هل ترغب أن أساعدك لحملها الى الأسفل ؟)

(كلا .) خيمت فترة طويلة أخرى من الصمت . (أستطيع تدبير نفسي .)

(أكيد ؟)

(أكيد .)

بتنهدة عميقة شرع بحمل بعض الكتب ووضعها عند الباب .

(عندي عدد من الصناديق في السيارة . سأجلبها الى الأعلى .)

(ألا تريد تقليب بقية الكتب لتتأكد من عدم وجود أخريات ترغب بهن ؟)

(كلا . أنت تعرفين ذوقي . لقد قمت بالعمل على أكمل صورة . كأنك فصلت ورقتين عن بعضهما ، وهاهما هناك ، أكاد لا أصدق .)

كف عن تنضيد الكتب ووقف ينقل بصره بين ، حصن المجلدات الأول وما يقابله من قصور وأبراج الأدب ، وبين زوجته ، لقد جنح الى التلة التي في المنتصف ، وبدا الطريق بعيداً بين التلة والمكان الذي تقف فيه زوجته عبر الغرفة .

في تلك اللحظة ، وثبت قطتان من المطبخ الى الداخل ، كلاهما سوداوان ، احداهما كبيرة ، والأخرى صغيرة ، جالتا بين الأثاث ثم ارتدتا خارجتين من الغرفة ، دون صوت .

يده ارتعشت . قدمه اليمنى استدارت نصف دورة نحو الباب .

(أوه ، لا ، لا تفعل!) قالت بسرعة . (لا نملك صندوق قطط هنا . دعهما في الخارج . سأحتفظ بمودي وموديلين .)

(لكن ــ) قال .

(مطلقاً .) قالت .

كان هناك صمت طويل . في النهاية استرخت كتفاه .

(اللعنة) قال بهدوء . (لا أريد هذه الكتب البائسة . بامكانك الاحتفاظ بها كلها .

(ستغير رأيك بعد أيام قلائل وتأتي خلفها .)

(لا أريدها . أريدك أنت فقط .)

(ذلك هو الجزء المزعج من الحكاية .) قالت دون حراك . (أعرف ، وهو أمر مستحيل .)

(أكيد . سأرجع . سوف أجلب الصناديق الى الأعلى .) فتح الباب وحدق ثانية الى القفل الجديد كما لو انه لا يصدق مايرى . اخرج المفتاح القديم من جيبه وركمه على الطاولة القريبة من الباب . (لن تحتاجين له مرة أخرى ؟)

(لا ، أبداً .) قالت بنبرة كاد ان لا يسمعها .

(سأطرق الباب حين أعود .) حدق الى الخارج ثم استدار . (تعلمين ان كل هذا ما هو الا دوران حول الموضوع الحقيقي الذي لم نناقشه بعد ؟)

(ماهو ؟) تطلعت الى الأعلى .

تردد ، خطى خطوة ، وقال ، (من يأخذ الأطفال ؟)

قبل أن تجيب ، مضى خارجاً ثم أطبق الباب .

---

١) جيش الخلاص : منظمة خيرية لمساعدة المحتاجين . م .

الباب المسحور

عاشت كلارا بيك في البيت العتيق عشر سنوات قبل أن تتوصل الى اكتشافها الغريب . عند الأرضية ، منتصف الدرج الى الطابق الثاني ، وفي السقف ـ باب المخبأ .

(آه ، يا الهي!) وقفت متخشبة ، وسط الدرج ، لتحملق في المفاجأة ، ترفض التصديق .

(لا يمكن! كيف لي أن أكون عمياء لهذا الحد ؟ يا للغرابة ، ثمة مخبأ في بيتي!)

لقد تسلقت الدرجات صعوداً ونزولاً آلاف المرات في آلاف الأيام دون أن تنتبه لذلك .

(يا للمرأة الحمقاء .) وهي خلال نزولها المتعثر الى الأسفل ، نست تماماً السبب الذي قادها للصعود الى الأعلى .

قبل الغداء ، جاءت للوقوف تحت الباب مرة ثانية ، حيث بدت ، بشعرها وخديها الشاحبين ، مثل طفل نحيف ، طويل ، عصبي . كانت عيناها لامعتين ، متواثبتين ، محدقتين .

(والآن ، بعد اكتشافي لذلك الشيء ، ما الذي سوف أعمل به ؟ مخزن علوي ربما . حسناً ـ) ثم انصرفت ، باضطراب مبهم ، شاعرة بذهنها ينزلق بعيداً عن الضوء .

(ليذهب الى الجحيم ، كلارا بيك!) قالت وهي تنظف صالة الاستقبال . (انك في السابعة والخمسين . لست مخرفة بعد ، والحمد لله!)

لكن على أية حال ، لماذا لم تلاحظ الأمر من قبل ؟

كانت المسألة تكمن بلا شك ، في نوعية الصمت . فسطحها لم يرشح قبلئذ ، ولم يتساقط الماء على السقف الداخلي قط ، أعمدة البيت العالية ثابتة رغم الريح ، ولا يوجد هناك فئران . لو حدث ان سمعت همسات المطر ، أو أنين الأعمدة ، أو رقصات الفئران في المخبأ ، لكانت قد رفعت طرفها الى الأعلى ووجدت الباب دون شك . الا ان البيت ظل صامتاً ، وظلت هي في جهلها .

لم تنقطع عن التذمر طوال العشاء . أنهت غسل الصحون ، قرأت حتى العاشرة ، ثم مضت باكراً الى الفراش .

سمعت خلال تلك الليلة ، الاشارات الأولى الضعيفة الناقرة ، والصرير المقصود الصادر من الأعلى ، من خلف السقف الأبيض . (فئران ؟) همست شفتاها ، وهي بين النعاس واليقظة .

ثم سقطت في متاهة النوم .

* * *

أثناء نزولها الدرج لاعداد الفطور ، رشقت الباب بنظراتها الثابتة ، نظرات الفتاة الصغيرة ،وشعرت بأصابعها الهزيلة تنتفض داعية اياها لاحضار السلم .

(الى الجحيم) دمدمت لنفسها (لماذا أزعج روحي بالنظر الى مخبأ فارغ ؟ الأسبوع القادم ربما .)

اختفى الباب بعد ذلك ثلاثة أيام .

اما لانها نسيت التطلع اليه ، أو لانه لم يعد موجوداً .

لكن في الليلة الثالثة ، سمعت ، وعند منتصف الليل ، أصوات فئران ـ أو أي شيء آخر ـ تتناهى اليها من خلال سقف غرفة نومها كأنها شبح أبيض لشجرة حليب تلامس السطح الغائب من القمر .

من تلك الفكرة الشاذة ، انحرف خيالها ليصور لها أعشاباً متساقطة أو بذور هندباء أو غباراً عادياً فقط ، يتهافت من أسكفة المخبأ .

فكرت بالنوم ، سوى ان فكرتها لم تتحقق .

راقبت ، وهي مضطجعة في سريرها ، السقف بثبات حتى شعرت ان بامكانها تخيل ذلك الشيء المتواثب وراء الجص . سيرك براغيث ؟ قبيلة غجرية من الفئران هاجرت من بيت الجيران ؟ حديثاً ، تم تغليف بعض من البيوت المجاورة من الدخل بورق أسود عازل حتى لتبدو مثل خيمة سرك مظلمة ، حيث كان صيادو القوارض يلقون قنابلهم المميتة ثم يهربون ، تاركين الحيوات السرية تواجه الموت . وعلى الأغلب ، فان الحيوات السرية تلك رزمت حقائبها الفرائية وتدفقت . مخبأ كلارا بيك هو المرفأ . الوجبات مجانية ، وفيه يكون المنزل الجديد .

ومع ذلك . . .

ما ان حدقت الى الأعلى ، حتى ابتدأت الأصوات مرة ثانية . أصوات شكلت لنفسها خلال حاجب السقف العريض أنساقاً خاصة ، أظافر أصابع ، طويلة ، تحك ، تطوف من هذه الزاوية الى تلك ، فوق أرضية المخبأ المعلقة فوق . أمسكت كلارا بيك أنفاسها . ازدادت الأنساق ، والطواف الناعم بدأ يتحلق عند مساحة تقع فوق وخلف باب غرفتها . كانت المخلوقات الضئيلة ، كائناً ما تكون هويتا ، تتشمم باباً آخر طلباً للخروج .

ببطء ، جلست كلارا بيك في الفراش ، وببطء أنزلت جسدها على الأرضية ، متفادية الانهيار . ببطء شرعت باب غرفتها ، وتسللت الى ردهة كانت تفيض بنور القمر البارد ، الذي تسرب خلال النافذة ليكشف لها ـ ذلك الباب .

الآن ، وكما لو ان حرارة كلارا بيك استدعتها ، اندفعت الأقدام الشبحية الدقيقة ، في الأعلى ، الى التجمع والتدافع على اطار باب المخبأ نفسه . يا الهي ! فكرت . انها تسمعني . انها تحاول ان ـ

برخاوة غلف باب المخبأ بالأثقال الزائفة المهتزة لتلك المخلوقات المخشخشة هناك . المزيد المزيد من أقدام العناكب غير المرئية أو أقدام

القوارض وهي تتخبط بين أوراق الجرائد الصفر المجعدة ، ثم مزيداً من الخشخشة فوق الاطار الخشب .

أعلى ، فأعلى . كانت كلارا على وشك البكاء : اذهبو ! اخرجوا! حين دق التلفون .

(نعم !) لهثت كلارا . شعرت كما لو ان قدميها تنسحقان تحت ثقل المفاجأة .(من ! ؟)

(كلارا! أنا ايما كراولي ! ماذا يجري! ؟)

(الهي ، لقد أرعبتني ! ايما ، لماذا تهتفين بهذا الوقت المتأخر ؟)

حل صمت طويل وكانت المرأة عبر الجانب الآخر من المدينة تستجمع أنفاسها .

(ايما -)

(كلا ، دعيني أكمل . فكرت فجأة ان كلارا مريضة ، أو ان كلارا أصيبت بمكروه ، أو -)

تهاوت كلارا على السرير ، وكأن صوت ايما يجرجرها الى الأسفل . أغلقت عينيها وهزت رأسها .

(كلارا) قالت ايما من مسافة الف ميل (أأنت بخير ؟)

(بخير .) ردت كلارا أخيراً .

(لست مريضة ؟ لم يحترق البيت ؟)

(كلا ، كلا . كلا .)

(الحمد لله . انني سخيفة . سامحيني .)

(سامحتك .)

(حسناً اذن . . . تصبحين على خير) . ثم أغلقت ايما كراولي الخط .

جلست كلارا تحدق ملياً في سماعة التلفون ، مصغية الى الاشارة التي تنبئ ان أحداً ما قد مضى ، بعد ذلك ،ودون وعي ، أعادت السماعة الى مكانها . كل شيء هادئ ، عدا قضقضة أوراق في النافذة ، كانت تتأرجح وتموج على اطارها الخشبي . نقرت كلارا على الباب وقالت :

(تظن أنك لطيف ، أليس كذلك ؟) ولم يعد ثمة المزيد من الطواف والرقص والهمهمة وضوضاء الفئران ، طوال بقية الليل .

* * *

بعد ثلاث ليال ، رجعت الأصوات أكبر وأعلى من ذي قبل .

(ليست فئران) قالت كلارا بيك (جرذان ضخمة ، هاه ؟)

للاجابة على شكوكها ، أدى السقف في الأعلى رقصة باليه معقدة ، مستمرة ، دون موسيقى . رقصة رؤوس الأصابع تلك ، ذات النمط الغريب ، تواصلت الى ان غاب القمر .وحالما تلاشى النور ، لف البيت صمت عميق لم يبق فيه من حي عدا كلارا بيك .

عند نهاية الأسبوع أصبحت الأصوات أكثر تناسقاً . لقد ترددت في كل غرف الطابق الأعلى ؛ غرفة الخياطة ، غرفة النوم القديمة ، وفي المكتبة حيث قلب مستأجر سابق ذات يوم صفحات كتاب وتفرس في بحر من أشجار الكستناء .

في الليلة العاشرة ، كانت ثمة عيون دون وجوه ، وأصوات تجيء على شكل ضربات طبول وترخيمات سحرية . كانت الساعة تشير الى الثالثة صباحاً ، حين مدت كلارا بيك يدها الى التلفون وأدارت رقم ايما كراولي :

(كلارا ! لقد عرفت انك سوف تهتفين !)

(ايما انها الثالثة صباحاً . الا يدهشك الأمر ؟)

(كلا . كنت مضطجعة هنا أفكر بك . أردت الاتصال لكنني أشعر بالحرج . هناك شيء مريب أليس كذلك ؟)

(ايما ، أجيبي على هذا السؤال . بيت يحتوي على مخبأ فارغ طوال سنوات ، وفجأة اذا بالمخبأ مليء ـ بأشياء ـ كيف يحصل هذا ؟)

(لم أكن أعرف أنك تملكين مخبأ ـ)

(من كان يعرف ؟ في البداية فئران ثم أصوات تشبه الجرذان والآن أشبه بالقطط تتراكض في الأعلى . ماذا أفعل ؟)

(هاتف فريق مكافحة القوارض هو ـ انتظري . هنا . سبعة ، سبعة ،

تسعة ، تسعة . أأنت متأكدة بأن شيئاً ما في مخبأك ؟)
(مدرسة بكامل تلاميذها .)
(من كان يقطن في بيتك سابقاً ، كلارا ؟)
(من ـ)
(أعني ، كان نظيفاً طوال الوقت ، والآن ، حسناً ، صار مسكوناً . هل سبق ان مات فيه أحد ؟)
(مات ؟)
(أجل ، ان كان أحد قد مات فيه ، فليس عندك فئران ، على الاطلاق .)
(هل تحاولين القول ـ أشباح ؟)
(ألا تصدقين ـ)
(أشباح ، أو من يدعون بالأصدقاء الذين يحاولون ترويعي . ايما ، لا تتصلي مرة ثانية !)
(لكن الذي تلفن هو أنت!)
(أغلقي الخط ، ايما !!) فأغلقت ايما كراولي الخط .

في الساعة الثالثة والربع من الصباح البارد ، انسلت كلارا بيك الى الردهة ، توقفت لحظة ثم أشارت الى السقف كما لو كانت تستفزه . (أشباح ؟) همست . زيتت مفاصل الباب ، الضائعة في الظلام نفسها بالريح . ثم استدارت كلارا بيك ببطء ، راجعة الى الفراش ، متنبهة لكل حركة تصدر . وعند الرابعة وعشرين دقيقة استيقظت على الريح وهي تهز البيت .

خارجاً في الردهة ، هل يمكن ؟ أصابها التوتر ، وأصاخت أذنيها . أطلق الباب في سقف الطابق الثاني برقة شديدة وهدوء عميق ، صرخة طويلة حادة . ثم انفتح على سعته . لا يمكن ! فكرت . شرعت درفتا الباب تنوسان أعلى وأسفل ، ترافقهما أصوات مكتومة . هل ! فكرت . سوف أتأكد بنفسي . كلا ! قفزت ، ركضت ، أغلت الباب ، ثم عادت وثباً الى الفراش . (فرقة المكافحة !) هكذا سمعت نفسها تردد الكلمات فيما هي تتكوم على نفسها تحت الأغطية .

* * *

في السادسة صباحاً ، وهي ذاهبة الى الأسفل أرقة ، جاهدت ان تحتفظ بعينيها مصوبتين الى الأمام ، كما لو كانت تتحاشى رؤية ذلك السقف المرعب . بمنتصف المسافة التفتت الى الخلف ثم ضحكت . (سخف !) . فالباب لم يكن مفتوحاً على الاطلاق . كان مغلقاً .

(فرقة المكافحة ؟) هتفت في سماعة التلفون ، وكانت الساعة تشير الى السابعة والنصف ، وكان الصباح مشرقاً .

في الظهيرة توقفت شاحنة مفتش الفرقة أمام بيت كلارا بيك . ومن الطريقة المتغطرسة المزدرية التي كان السيد تيمونس ، المفتش الشاب ، يمشي بها الى البيت ، أقرت كلارا انه يعرف كل شيء في العالم حول الفئران ، والنمل الأبيض ، وحالات الوسوسة ، وأصوات آخر الليل الغريبة . كان يتلفت الى العالم حوله بتلك العجرفة الرجولية الأنيقة التي يمتلكها عادة مصارعو الثيران أو سباحو الفضاء أو الدونجوانيون الذين لا يتورعون عن ادارة ظهورهم للمخلوقة الضعيفة الراقدة في الفراش ، فيما هم يولعون سجائرهم .

بدا وهو يضغط على جرس الباب ، أشبه بمخلص أوفدته السماء .

أوشكت كلارا ، عندما فتحت له الباب ، على صفقه بوجهه مباشرة ، للطريقة التي كانت عيناه فيها تنزعان ملابسها ، وتنفذان في لحمها ، وتستقرئان أفكارها . ابتسامته كانت ابتسامة مخمور . انه مخمور بنفسه .

(لا تقف هناك فقط !) انفجرت به صائحة . (قم بعمل مفيد !) ثم استدارت بسرعة ومضت بعيداً عن وجهه المصعوق .

التفتت الى الخلف كي ترى وقع كلماتها عليه . نساء قليلات تكلمن معه على هذه الشاكلة . كان يتفحص الباب ، بفضول ، قبل ان يخطو الى الداخل .

(من هنا!) قالت كلارا . اجتازت غرفة الجلوس وصعدت الدرج الى الأرضية ، حيث وضعت السلم الحديد . رفعت يدها الى الأعلى وأشارت : (المخبأ هناك . انظر ان كان باستطاعتك كشف سر تلك الضجة اللعينة . ولا تطلب ثمناً باهظاً لانجاز العمل . امسح قدميك قبل النزول الى الأسفل . انا ذاهبة للتبضع ، هل يمكنني الثقة بك فلا تسرقني بعد غيابي ؟)

كان توازنه يختل مع كل كلمة تقال ، ومض وجهه وشعت عيناه . وقبل أن يفتح شفتيه ، انحدرت كلارا مع الدرجات الى الأسفل ثم ارتدت معطفاً خفيفاً للخروج .

(هل تعرف كيف يبدو صوت الفأر في المخبأ ؟) سألته من فوق كتفيها .

(اللعنة ، سيدتي ، أعرف ذلك جيداً .)

(انتبه الى لسانك ، هل تعرف الجرذان ؟ قد يجوز انها جرذان أو مخلوقات أكبر . ما هو أكبر شيء يمكنه ان يعيش في مخبأ ؟)

(هل يوجد راكونات(١) في الجوار ؟) (سيدتي ألا تعرفين بيتك جيداً ؟ أنا ـ)

صمت كلاهما في اللحظة نفسها . ذلك لان صوتاً ما كان قادماً من الأعلى . صوت حكة ضئيلة في البداء ، ثم خشبخشة ، وبعدها صوت ضخة قلب .

تحرك شيء ما في المخبأ . غمز تيمونس الباب المغلق وشخر قائلاً : (أهلاً!)

حركت كلارا رأسها بقناعة وخلعت قفازيها وعدلت قبعتها مراقبة .

(انه أشبه ـ) تشدق السيد تيمونس .

(نعم ؟)

(هل حدث ان عاش قبطان في هذا البيت ؟) سأل أخيراً .

تردد الصوت أعلى هذه المرة . بدا البيت كما لو كان ينوء تحت ثقل ما في الأعلى .

(انه أشبه بشحنة .) أغلق تيمونس عينيه للاصغاء . (شحنة على سفينة ، تنزلق كلما غيرت السفينة موضعها .)

ضحك ثم فتح عينيه .

(يا الهي !) قالت كلارا وهي تحاول تخيل ذلك .

(أو على الأرجح) قال السيد تيمونس ، نصف مبتسم الى السقف (انك تملكين مستنبتاً زجاجياً في الأعلى ، أو شيئاً آخر ؟ الصوت يشبه صوت نمو

---

١) الراكون : حيوان امريكي شمالي أكبر من الجرذ . م .

نباتات . أو خميرة ربما ، كبيرة مثل بيت كلب ، تنزلق من اليد . سمعت مرة ان رجلاً ربى خميرة في سقفه . انها ـ)

صفق مشبك الباب الأمامي . قالت كلارا بيك أثناء خروجها غاضبة من نكاته : (سأعود خلال ساعة . ابدأ عملك!) سمعت ضحكاته تتبعها الى الممر حيث كانت تسير . لم تتطلع خلفها الا مرة واحدة . كان يتمونس واقفاً على الدرجة الأولى من السلم ، ناظراً الى الأعلى . هز كتفيه باستهانة ، وأعطى ايماءة من يديه الى ذلك الشيء الذي في الداخل ، و تسلق السلم كأي بحار .

* * *

عادت كلارا بيك بعد ساعة ، ووجدت الشاحنة واقفة لا تزال على حافة الطريق .

(اللعنة ، ظننت انه أنجز العمل الآن . رجل غريب ، بذئ اللغة ، يهيم متسكعاً ـ)

توقفت وأصاخت سمعها الى البيت .

هدوء .

(غريب .) همست .

(سيد تيمونس ! ؟) صاحت . وانتبهت الى انها لا تزال على مبعدة عشرين قدماً من الباب الأمامي المفتوح ، فاقتربت من شبك الباب لتنادي :

(هل يوجد أحد في البيت ؟)

اجتازت الباب الى صمت شبيه بصمت الأيام القديمة ، قبل أن تتحول الفئران الى جرذان ، وتتحول الجرذان الى شيء أكبر وأكثر دكنة على أرضية المخبأ . كان صمتاً خانقاً .

ترنحت عند قاع الدرج محدقة الى الأعلى ، حاضنة مشترياتها بين ذراعيها كطفل ميت .

(سيد تيمونس ـ)

لكن الهدوء وحده يخيم على البيت . السلم المتنقل لايزال هناك منتظراً على أرضية الدرج . الا ان باب المخبأ كان مغلقاً .

عجباً ، من البديهي انه ليس في الأعلى! فكرت . لا يمكنه ان يتسلق الى المخبأ ويغلق الباب على نفسه . الأخرق ، لقد مضى حتماً الى مكان ما .

استدارت لترمق شاحنته المهجورة في الخارج ، وسط وهج الظهيرة الساطع .

اعتقد ان شاحنته نالها العطب ومضى ليطلب مساعدة .

كومت حاجاتها في المطبخ وأشعلت سيجارة للمرة الأولى منذ سنين ، دون أن تعرف السبب . دخنتها ، أشعلت أخرى ، ثم أعدت الغداء بضجة ، قارعة المقالي وفاتحة العلب بجلبة هائلة .

استمع البيت الى كل ذلك دون أية استجابة .

بحلول الثانية كان الصمت معلقاً حولها كأنه غيمة من الغبار .(الشركة .) قالت وهي تدير رقم الهاتف .

وصل صاحب شركة المكافحة بعد نصف ساعة ، راكباً دراجة نارية ، ذلك لكي يأخذ الشاحنة المهجورة . دخل خلال حاجز الباب ناقراً قبعته وراح يثرثر مع كلارا بيك وينظر الى الغرف الفارغة ويزن الصمت .

(لا سيدتي العزيزة ، أصبح شارلي صاخباً في المدة الأخيرة أكثرمن اللازم . سيعود غداً ليجد نفسه مطروداً . ماذا كان يعمل هنا ؟)

مع الجملة الأخيرة حدق الى الأعلى ، الى حيث السلم .

(آه) قالت كلارا بعجلة (كان فقط يتفحص كل شيء .)

(سآتي غداً بنفسي) قال المالك .

وحين رحل الرجل بعد الظهيرة ، صعدت كلارا بيك الدرج ببطء ، رفعت وجهها مواجهة السقف ، وتطلعت في الباب وقالت بهمس : (لم يرك أيضاً هو الآخر) .

لم يتحرك أي شيء في المخبأ ، ولم ترقص الفئران . وقفت مثل تمثال ، محدقة بالضوء وهو يتسرب من الباب الأمامي . لماذا ؟ فكرت بعجب ، لماذا كذبت ؟

حسناً ، لشيء واحد ، انغلاق باب المخبأ ، اليس كذلك ؟ اضافة ، لا أعرف لماذا ، فكرت ، لا أريد لأي شخص ان يتسلق ذلك السلم مرة أخرى . اليس ذلك سخيفاً ؟ اليس ذلك عجيباً ؟

* * *

تناولت عشاءها مصغية ، وغسلت الأطباق مستوفزة .

وفي الساعة العاشرة دخلت الفراش ، لكن هذه المرة في غرفة الخادمة الواقعة في الطابق الأسفل ، والتي لم تستخدم لسنوات طويلة ماضية . لماذا اختارت الاستلقاء في الغرفة السفلية ، لا تعلم ، قامت بذلك بتلقائية فقط ، وقد استلقت هناك بأذنين مستنفرتين ، وجبين نابض ، ورقبة متخشبة انتظرت متصلبة تحت الشراشف ، مثل قبر منحوت . قرابة انتصاف الليل ، هبت الريح ، وهزت ما يشبه الأوراق على لحافها . عيناها اتسعتا . أعمدة البيت اهتزت . رفعت رأسها . شيء ما همس برقة في المخبأ . نهضت .

أعلى تنامى الهمس ، وأثقل ، كأنه حيوان كبير بلا شكل ، يجوس في ظلام المخبأ .

وضعت قدميها على الأرضية وجلست تنظر اليهما . تعالت الضوضاء ثانية ، من الأعلى ، مرة على شكل أقدام أرانب تزحف ، وأخرى على شكل ابهام كأنه قلب ضخم .

خطت خارجة الى ردهة الطابق الأسفل ، ووقفت مستحمة بضوء القمر الناصع الذي كان يغشى النوافذ .

ممسكة بالدرابزون ، صعدت الدرجات خلسة الى الأعلى ، وبوصولها أرضية الدرج ، لامست السلم ، ثم رفعت عينيها الى فوق .

عيناها ارتعشتا ، وقلبها تواثب ، ثم وقفت ذاهلة .

فأثناء ماكانت تراقب ، انفتح الباب ببطء وتلاشت درفتاه . انفتح ليريها مربعاً مظلماً بانتظارها ، كأنه نفق منجم صاعد الى الأعلى ، دون نهاية .

(لقد قاسيت مافيه الكفاية !) بكت .

اندفعت الى المطبخ في الأسفل ورجعت راكضة الى الأعلى مع مطرقة ومسامير ، لتتسلق السلم بوثبات غاضبة .

(لم أعد أصدق هذا ! كفاية ، هل تسمعني ؟ توقف !)

على قمة السلم تحتم عليها أن تشد جسدها نحو المخبأ ، داخل الظلمة السميكة ، الأمر الذي تطلب منها أن تدس ذراعها ورأسها أيضاً .

(الآن!) قالت .

في تلك اللحظة الخاطفة ، وبينما كانت تقحم رأسها في الفتحة وأصابعها تتلمسان طريقها لايجاد الباب ، حدث الأمر المفاجئ المروع .

كما لو ان شيئاً أمسك برأسها ، كما لو كانت فلينة تسحب من عنق قنينة ، جميع جسدها ، ذراعاها ، أطرافها المدلاة ، جذبت جذباً الى المخبأ .

اختفت كأنها منديل ساحر . تلاشت في الأعلى ، كأنها دمية ميكانيكية هاجمت أسلاكها قوة غير مرئية .

كانت الحركة من السرعة بحيث بقي حذاؤها البيتي على درجات السلم .

لم يبق أي صراخ أو همس ، بعد ذلك . أنفاس صمت طويلة فقط ، تلبثت لعشر ثوان لا غير .

ثم ، من دون سبب معقول ، اصطفق باب المخبأ غالقاً نفسه .

لفرادة الصمت في البيت القديم ، لم يُلاحظ باب المخبأ مرة أخرى . . .

الى ان حل القاطن الجديد في البيت بعد حوالي عشر سنوات .

وعود، وعود

حين فتحت باب شقتها ، عرفت انه كان يبكي . كفت الدموع للتو من الانحدار على خديه دون ان يكلف نفسه حتى عناء مسحها .

(يا الهي ، توم ، ماذا حدث ؟ ادخل !)

تشبثت به . بدا انه لا يشعر بقبضتها ، لكن في النهاية نظر الى الأسفل ، ورأى ان عليه الدخول ، فدخل . تطلع حوله الى شقتها كما لو انها غيرت الأثاث وجدران البيت .

(أنا آسف لازعاجك .) قال .

(ازعاج!) قادته عبر الغرفة . (اجلس . تبدو تعيساً . دعني اجلب لك شراباً .)

(جيد ، سأجلس قبل السقوط على الأرض ،) قال بشكل مبهم .

(اشرب ! لا أتذكر اني تناولت طعاماً اليوم . ربما .)

جلبت قنينة براندي ، سكبت منها في الكأس ، رمقت وجهه ، سكبت كمية أخرى .

(هدئ روعك . اشرب الكأس دفعة واحدة .) راقبته وهو يتجرع الكأس .

(ماذا جرى ؟)

(انها بيث) همس ، مطبق العينين ، دموعه تتراكض (. . . وأنت .)

(دعك مني ، ماذا جرى لبيث ؟)

(سقطت على رأسها . لبثت يومين في المستشفى ، فاقدة الوعي .)

(آه ، يا الهي . . .) تحركت منحنية وركعت جنبه مطوقة اياه بذراعيها كما لو كانت تخشى عليه السقوط . (لماذا لم تتصل بي ؟)

(فعلت ، لكنني كنت مع كلارا في المستشفى ، تلفنت عدة مرات لكن ، لا جواب . بقية الوقت ، كانت كلارا قريبة مني جداً ، لو سمعتني أتكلم معك ، الهي - يكفي المرء ان له طفلة موشكة على . . . بأي لحظة . . على أية حال لقد حاولت ، وها أنا هنا .)

(يا لله ، لا عجب أن تكون على هذه الدرجة من السوء . الآن ، بيث . انها ليست . . . ؟ لم . . . ؟)

(كلا ، لم تمت . الحمد لله ، آه ، الحمد لله!)

وراح ينشج عالياً ، ماسكاً الكأس الفارغة بيده ودموعه تتساقط على مقدمة معطفه . متشبثة بذراعه ، ساقطة على ركبتيها ، راحت تنشج هي الأخرى .

(يا يسوع) قالت برقة (يا يسوع) .

(لو تدركين عدد المرات التي ذكرت بها ذلك الاسم في نهاية الاسبوع . لم أكن متديناً على الاطلاق ، لكن ، فجأة ، أي شيء ، فكرت ، أي شيء أستطيع قوله ، عمله ، التوسل به ، أي شيء . لم أبك قط بهذا الافراط في حياتي . لم أتضرع قط بهذا الايمان .)

كان عليه التوقف عن الحديث ، بعد ان هزت كتفيه موجة جديدة من الحزن .

حين هدأ لحظة ، نجح بالعثور على بقية الحكاية وقال هامساً :

(صحتها جيدة ، معافاة ، خرجت من الغيبوبة قبل ساعتين . ستتحسن ، الطبيب متأكد من الأمر . في تلك الساعة لو كتب لي فاتورة بمليون دولار ، لصرفت بقية حياتي في سدادها دون تردد ، انها أثمن من ذلك .)

(أعرف . البنات ثمينات دائماً لآبائهن ، أو معظمهن على الأغلب .)

غطس بمقعده ، وبقيت هي جاثمة على ركبتيها ، منتظرة اياه كي يسترد أنفاسه . وقالت أخيراً :

(كيف تمت الحادثة ؟)

(واحد من تلك الأشياء الغبية . وضعت سلماً عتيقاً في غرفتها للوصول الى حلي أعياد الميلاد . انكسر ذلك الشيء اللعين ،وقعت وارتطم رأسها بقوة . لم نعرف . كنا في القسم الآخر من البيت . احترمنا خصوصيتها دائماً . بعد مضي ساعة ، وحين ظل بابها مغلقاً ولم نسمع نأمة ، مضت زوجتي الى الداخل ، لسبب من الأسباب . بغتة تفجر العويل . ركضت ، وهناك على الأرضية كانت بيث ، سابحة بدمها ، لقد ارتطم رأسها بحافة صندوق الكتب . أوشكت على السقوط ، وأنا أقترب منها . حاولت حملها ، الا اني كنت من الضعف حيث لم أستطع تحريك جسدي . الهي ، بدت ميتة ، رخوة ، مثل الأموات بالضبط . لم أستطع ايجاد نبضها ، لان نبضي كان أعلى . لا أدري كيف عثرت على التلفون ، غير ان أصابعي عجزت عن تشغيل القرص . جذبت كلارا التلفون مني وأدارت الرقم على فرقة الطوارئ . حين فتح الخط ، أمسكت السماعة مرة أخرى ، الا انني لم أستطع الكلام ، كلارا هي التي كلمتهم - يا يسوع ، أوشكت أن أكلف بيث حياتها ! كنت مشلولاً ، ماذا لو كنت وحيداً ؟ هل كنت أقدر على الحديث ؟ هل ستكون الآن في عداد الأموات ! من دون كلارا . . . حسناً ، وصلت الفرقة خلال خمس دقائق بدلاً من نصف ساعة . أخذوا بيث الى المستشفى . كنت في سيارة الاسعاف كأي ميت آخر . تبعتنا كلارا بالسيارة . في المستشفى ، منعونا من رؤية بيث ساعة كاملة ، وكانوا يقاتلون لانقاذها .

عندما خرج الطبيب ، قال ان حالتها ليست أكيدة ، تحتمل الأمرين ، ليوم قادم أو يومين . فكري بهذا . . . الانتظار دون علم ، يومين كاملين . لبثنا في المستشفى حتى الثانية صباحاً ، الى ان نجحوا بارسالنا الى البيت ، وقالوا انهم سيتصلون بنا ان حدث تغيير ما . مضينا الى البيت وبكينا طوال الليل . لا أعتقد اننا توقفنا عن البكاء أكثر من عشر دقائق . هل حدث ان بكيت بكاء متواصلاً ليلة بكاملها ، هل حدث ان رغبت بقتل نفسك من الحزن يا الله ، كم كنا منهكين . كان ذلك هو الكابوس « الحقيقي » الأول في حياتنا . اصغي الي! لا أستطيع التوقف عن الكلام . يا الهي ، انني تعبان ، لكنني جئت لأراك فقط ، لورا .)

(أهي بخير ، « حقيقة » بخير ؟) قالت لورا .
(قال الطبيب ان بامكانها الخروج خلال ثلاثة أيام .)
(دعني أملأها لك) . أعادت ملأ الكأس وراقبته وهو يرتشفها بتشنج ، بينما كانت الدموع تتجمع في عينيها .
(رأيت ابنتك مرة واحدة فقط ، لقد كانت ، انها ، فتاة حلوة ، لا عجب انك . .)
(لا عجب .) أطبق عينيه ، وفتحهما أخيراً ناظراً الى خليلته . (هل تعرفين ما الذي أنقذها حقيقة ؟)
(فرقة الطوارئ ـ)
(كلا .)
(الطبيب ـ)
(عدا ذلك . ضراعتنا . لقد تضرعنا لورا . واستجاب الله . « شيء ما » استجاب . لكن الأمر حدث . لم أؤمن بالتضرع على الاطلاق . أنا أؤمن الآن .)
كان يحدق فيها بتركيز . فما كان منها الا ان أشاحت بصرها ، وجلة . لوت أصابعها معاً وراحت تنظر اليها . فجأة ، صار وجهها شاحباً كما لو انها خمنت أمراً ما فنحته جانباً وراء عينيها . أخيراً ، جذبت نفساً عميقاً ، ورمقته بسرعة ،وسألت :
(ماذا ؟)
(هاه ؟)
(« ماذا » تضرعت ؟) سألت .
(لم تكن) قال (لم تكن ضراعة بمعنى الكلمة . . أشبه بـ . . . وعد)
شحبت لورا ، انتظرت ، تنفست بعمق وسألت :
(ما كان وعدك ؟)
لم يستطع الجواب . أصبح الأمر فجأة شبيهاً بتلك اللحظة التي لم يستطع ان يدير فيها قرص التلفون . لقد فقد القدرة على الكلام .

(حسناً ؟) قالت لورا .

(وعدت الله ـ)

(نعم ؟)

(اذا أنقذ بيث ـ)

(نعم ؟)

(سأقطع علاقتي بك ، ولن أراك مرة أخرى!)

خرجت الجملة بلهاث مضطرب الاندفاع .

(ماذا ؟) اعتدلت بجلستها على الأرض ، دفعت نفسها الى الخلف ، وحدقت به كما لو كان مجنوناً .

(سمعت ما قلت .) رد بهدوء .

مالت الى الأمام مرتعشة وصاحت به :

(كيف استطعت «مهما حدث» الوعد «بذلك» ؟)

(تحتم علي ، فعلت ، كان الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به .)

انزلق عن الكرسي ، وعند وصوله الأرض ، راح يزحف تجاهها ، ماداً ذراعيه . (كنت مسعوراً ، ألا ترين ؟ مسعوراً!)

الى الخلف دفعت جسدها مبتعدة عنه ، لتزيد الفضاء الفاصل بينهما . نظرت الى الشباك ، الى الباب ، كما لو كانت تبحث عن مهرب ، ثم قالت صارخة كالسابق :

(أنت تعرف انني الآن كاثوليكية ــ)

(أعرف ، أعرف .)

(وجديدة في كاثوليكيتي . هل تدرك المعضلة التي «وضعتني» فيها ؟)

(لم أضعك في معضلة . الحياة شاءت ذلك ، حادثة ابنتي شاءت ذلك . كان علي ان أعد شيئاً لانقذها . ماذا «جرى» لك ؟)

(أنا أحبك ، «ذلك» هو الأمر !)

قفزت ، تجولت في الغرفة ، ثم استدارت لتمسك كوعيها وتنحني عليه .

(ألاترى ، انك لا تستطيع المضي هكذا واعداً الله بأشياء مثل تلك ! أيها الأحمق ، الآن ليس بامكانك الرجوع عن وعدك!)

(لا أرغب الرجوع) رد ، ناظراً اليها ، مصعوقاً . (أنت ـ لا يمكنك « دفعي » للقيام بهذا!)

(توم ، توم)! أوضحت (أنا مؤمنة بعمق . هل تظن أنني بهذه اللحظة أستطيع الطلب منك مثل ذلك الشيء ؟ يا للمسيح ، أية فوضى ! الوعد وعد ، ينبغي الحفاظ عليه ، لكن ذلك سيضعني خارج الصورة . اما اذا نقضت الوعد فلن أرضى بك لانك كاذب ، كاذب مع الهي الجديد ، ومعتقدي الجديد . يا للفجيعة ، لا يمكنك الاقدام على عمل أكثر خسة ، حتى لو كنت قد خططت له!)

جالساً على الأرض ، كان عليه أن يتراجع اللحظة الى الوراء ، ثم يمسح خديه بظاهر كفه .

(ألا « تعتقدين » ـ ؟)

(لا ، لا . فوق هذا ، كانت حادثة ، وهي ابنتك . لكن وجب عليك ان تفكر ، ان تتريث ، تعتبر ، تكون أكثر روية فيما قلت!)

(كيف تستطيعين الحذر أثناء سقوطك من بناية ذات عشرين طابق وأنت بحاجة الى شبكة ؟)

وقفت فوقه ، وأكتافها مترهلة كما لو انه أطلق عليها رصاصة في صدرها . شعرت جسدها يسقط الى الأسفل ، بنفس الطريقة التي وصفها . حتى لو كانت ثمة شبكة في مكان ما ، فهو لن يشركهامعه . بعد أن ارتطمت بالقاع ووجدت روحها حية لاتزال ، أخرجت عنوة بعض كلمات مرتعشة :

(آه ، توم ، توم ، أنت ـ)

(أنا أبكي لشيئين .) همس . (ابنتي ، التي أوشكت على الموت . وأنت ، التي افترضتك ميتة أيضاً . « حاولت » ان أختار . بلحظة موحشة فكرت ، « هنالك » ثمة خيار . غير أني أدركت ان الله سوف يبصر أية كذبة لعينة أحاول اختلاقها . لا تستطيعين فقط الوعد والضراعة وحالما تفتح ابنتك عينيها وتبتسم تنسين كل شيء . أنا الآن ممتن لدرجة انني أستطيع الانفجار . انا جد حزين

لنا ، أنا وأنت ، سأبكي طوال الأسبوع وستفكر زوجتي ان ذلك بسبب عودة بيث الى البيت فقط .)

(اخرس .) قالت لورا بهدوء .

(لماذا ؟)

(السبب . كلما تكلمت أكثر ، كلما وجدت نفسي غير قادرة على ايجاد الجواب . توقف عن محاصرتي في الزاوية . توقف عن قتلي بدلاً عنها . توقف .)

لم يعد أمامه سوى الجلوس ، فقد أحس جسده ثقيلاً ومتحجراً ، بينما استدارت هي وذهبت تفتش دون حس على كأس وشيء من الشراب . تطلب سكب الشراب منها فترة طويلة ، ومن ثم فترة أطول لتتذكر الكأس التي أمامها . مشيحة بوجهها ، سألت وهي تنظر الى الجدار فقط :

ـ (ماذا قلت في ضراعتك ؟)

(لم أعد أتذكر .)

(نعم ، تتذكر . يا اله السماء توم ، ما هو الكلام اللعين الذي قلته ويتعذر الغاءه ؟)

شاع الدم في وجهه وأدار عينيه الى هذه الجهة أو تلك ، غير قادر على النظر اليها .

(يا الهي ،) قال بأنفاس متقطعة ، (هذا يذكرني بأمي التي كانت تجبرني على الصلاة عندما كنت في الخامسة . كرهت الصلاة . كنت مندهشاً ، لا أرى الله بأي مكان ، لم أعرف من الذي يفترض بي التكلم معه . كان الأمر شاقاً جداً ، حتى اضطرت أمي للتوقف . بعد سنوات ، تعلمت الصلاة ، بنفسي ، ولنفسي . جيد ، جيد ، لا تحدقي الي بتلك الطريقة . هذا ما قلت ـــ)

نهض بغتة ، مشى الى النافذة ونظر خارجاً عبر المدينة ، نحو الأبنية ، الي بناية شبيهة بالمستشفى ، وحصر تفكيره هناك . صوته أوشك أن يكون غير مسموع . عرف هذا ، توقف ، ثم ابتدأ ثانية ، حيث صار بامكانها السماع .

(قلت : أرجوك ، ربي ، أنقذها ، أنقذ ابنتي ، دعها تعيش . ان حققت

هذا ، أعدك ، أقسم انني سأترك أغلى شيء في وجودي . أعدك بترك لورا ، ولن أراها مرة أخرى . أعدك ، الهي ، أرجوك .)

هنا حلت استراحة طويلة الى ان أعاد الكلمة الأخيرة بهدوء :

(« أرجوك »)

دون حركة ، رفعت كأسها الى شفتيها وارتشفت البراندي الى آخره ،وبعينين مطبقتين ، هزت رأسها .

(الآن ، عملتها حقاً ،) قالت .

تراجع عن النافذة ومشى باتجاهها ، لكنه توقف . (أنت تصدقيني ، أليس كذلك ؟)

(ليتني لا أصدقك ، لكن ، مافي اليد حيلة . اللعنة!)

قذفت الكأس بعيداً وراقبتها تتدحرج على السجادة دون ان تنكسر .

(كان بامكانك الوعد بشيء « آخر » ! ألم تستطع ، الم تستطع ، الم « تستطع » ؟)

(أعد بماذا ، بماذا ؟) جاهلاً أين يذهب ، جاس الغرفة ، غير قادر على الالتفات اليها . (ما الذي يمكنك ان تعدين الله به ويعني كل شيء ! نقود ؟ بيتي ؟ سيارتي ؟ الغاء رحلتي الى باريس ؟ ترك عملي ؟ يعلم الله انني أحب « ذلك »! لكن لا أعتقد ان الله يرغب بأشياء مثل تلك . ثمة شيء واحد ثمين فقط ، اليس كذلك ؟ شيء واحد فقط هو . . . الحب . فكرت وفكرت وأدركت أني أملك شيئاً واحداً خاصاً نفيساً بمنتهى النفاسة في حياتي وهو ذو قيمة مطلقة ، وربما يعني شيئاً ما في هذه الصفقة .

(وذلك الشيء كان « أنا » ؟) قالت .

(اللعنة ، نعم . سمي لي شيئاً آخر . لا أستطيع التفكير بشيء عدا ذلك . أنت . حبي لك كان فائقاً ، استغرق مني كل الاهتمام . كان محور حياتي كلها ، وقد عرفت ان الهدية ينبغي ان تكون الهدية المناسبة . عندما قلت اني سأتركك ، أدرك الله أي دمار سيحصل لي وأي خسارة . هكذا صار « لزاماً » عليه ان يرد لي ابنتي ! كيف لا ؟)

كان قد توقف الآن في منتصف غرفة المعيشة . التقطت لورا الكأس الساقطة ، نظرت اليها ، دوّرتها ببطء .

(لقد سمعت الآن ورأيت كل شيء .) قالت .

(سمعت ورأيت « ماذا » ؟)

(رجالاً ، بطريقة أو بأخرى ، يتخلصون من علاقاتهم السرية .)

(أهذا ما يبدو لك ؟)

(أي شيء آخر اذا ؟ كنت ترغب بالقطيعة منذ وقت طويل . أصبحت الآن تملك المبرر .)

أطلق صوت حداد ، ثم تأوهاً ، ثم تنهيدة من الزفير .

(مبرر ؟ كلا . اعتراف . أي شيء آخر ترغبين مني عمله ؟)

(حسناً ، بالتأكيد ليس ان تعد الله بتركي!) بكت . (لماذا « أنا » ؟)

(ألا تدركين ؟ أما كنت تصغين ؟ كنت الصاحبة الوحيدة لي . أحببتك ، أحبك ، وسأظل دائماً أحبك . والآن ، على الرغم من انني سأنزف لسنوات ، سوف أتخلى عنك . من المتضرر الأكبر هنا ، أنا أم أنت ؟ من يقع عليه الأذى الأكبر ، أنت التي ستهجرين ، أم أنا الذي سأتركك ؟ هل تستطيعين حقاً ، أعني حقاً ، تصوير ذلك واخباري ؟)

(كلا) قالت وتهدل كتفاها مرة أخرى . (سأكون بخير . اعذرني . سيتطلب الأمر بعض الوقت فقط . لم تمر سوى عشر دقائق منذ دخولك البيت . يا يسوع .)

استدارت ومشت ببطء الى المطبخ . سمعها تنقب في الثلاجة . ذهب الى الكرسي وجلس متمسكاً بذراعيه كما لو كان خائفاً ان يقذف به فجأة في فضاء الغرفة .

رجعت مع قنينة من الشمبانيا وكأسين ، ماشية على الأرضية كما لو انها حقل الغام .

(ماهذا ؟) سأل ، حالما جلست على الأرضية مرة أخرى .

(ما الذي تشبه ؟) انتزعت الفلينة بخبرة وعندما انقذفت وارتطمت في الجدار ، أضافت (ابتدأنا بها ، فلم لا ننتهي بها ؟)

(أنت غاضبة علي ـ)

(غاضبة ، يا للبؤس ، أنا مستأخذة ، وحزينة ، وأود الذهاب الى الفراش لأنام شهراً ولا أستيقظ مرة ثانية ، لكني سأقوم بهذا غداً ، اللعنة . ربما ستساعد هذه الشمبانيا الحقيرة على ذلك . خذ كأسك .)

سكبت وشربا وظلا صامتين لفترة طويلة .

(هكذا فهي المرة الأخيرة التي نرى فيها بعضنا .) قالت .

(لا ينبغي عليك وضع القضية بهذه الخشونة .)

(ولم لا ؟ ؟ أنت البادئ . دعنا نتجاوز الهزل . هذه آخر خمس دقائق لحياتنا معاً . عندما تنهي شرابك ، أريد منك ان تكون خارج الباب . لا أحتمل بقاءك هنا . لا أريد منك الذهاب . أتمنى لو أمتلك وعداً ، ضراعة ، قوية كالتي امتلكت ، ثم آمن بها . كنت استصرخت الله بها ، لكني لا أملك تلك الصلابة ، وليس من أحد ميت لي ، عداك ، وأنت لست ميتاً حقيقة ، ذاهب فقط . لذلك ، لا تتصل أبداً ، لا تكتب ، لا ترجع ، لا تزرني بغتة . أعرف ، أعرف ، ذلك ما تحاول القيام به ، الذهاب ، البقاء . لكن ربما تغوى . واذا اتصلت ، فسيتحتم على الموت من جديد . هل أبدو أنانية ، هل أبدو صعبة ؟ كلا . لا أستطيع معالجة الموقف بشكل آخر . لذلك ـ)

رفعت كأسها وأنهت الشمبانيا ، ثم نهضت ومشت لتفتح باب الشقة وتقف جنبه منتظرة .

(بهذه السرعة ؟) قال بكآبة .

(من الصعب التصديق انها كانت خمس سنوات . لكن ـ « بهذه السرعة » .)

قام ونظر حوله كالذي يبحث عن شيء ما ، ثم أدرك انها هي حقيقة وجاء ليقف أمامها ، يداه على جنبيه . لم يكن يدري ماذا يعمل بذراعيه أو جسده .

(هل تغفرين لي ؟)

(كلا ، ليس الآن . لكن لاحقاً ، نعم ، يجب علي . أما هذا ، أو التوقف عن الذهاب الى الكنيسة . أعطني وقتاً لأفكر بعمق حول ابنتك ومقاربتها

الموت ، ونعم ، سأغفر لك . انه أسبوع مزعج لكلينا . جزء مني يدرك انك أصبت في المنتصف تماماً . وداعاً .) فمها همس ، «حبيبي» ، لكنها لم تستطع النطق بها عالياً .

قبلته قبلة طويلة ، وعندما شعرت بالسحبة الخفيفة لجاذبيتها وهي تحركه أقرب نحوها ، تنحت عنه وخطت بعيداً .

خرج من الباب ، وعند منتصف الدرج نحو الأسفل ، استدار ونظر اليها ثم قال :

(وداعاً .)

أدار رأسه ومشى بقية الدرجات هابطاً .

الدموع تفجرت من عينيها . دفعت جسدها الى الأمام لتمسك قمة الدرابزون وتحدق الى الأسفل فاقدة الحس .

(كيف تجرؤ !) صاحت ثم توقفت .

حدقت الى بئر الدرج الفارغ ، كاظمة أنفاسها .

الكلمات القادمة خرجت من حواراتهم السابقة :

(ـ تحب ابنتك ـ)

ثم البقية ، التي كانت هي الوحيدة التي تسمعها :

(ـ أكثر «مني» ؟)

تقهقرت ، متلمسة ما حولها ، ووجدت نفسها في الداخل ، فصفقت الباب ، «بقسوة» .

أسفل الدرج ، سمع الصفقة .

وكانت تشبه صوت انغلاق قبر .

الشيء عند قمة الدرج

وسط القطارات كان .

نزل في شيكاغو ليجد أمامه أربع ساعات من الانتظار .

فكر بالتوجه الى المتحف ، فلوحات رينوار ومونيت تظل دائماً تسحر عينيه وتلامس ذهنه . لكنه كان متردداً . صف التاكسيات خارج المحطة جعل عينيه تطرفان .

لم لا ، فكر ، يستأجر سيارة ، ثلاثين ميلاً الى الشمال ، يصرف ساعة في مدينته القديمة ، ثم يودعها للمرة الثانية في حياته ، ويعود جنوباً ليأخذ القطار الى نيويورك ، أسعد حالاً وأكثر حكمة أيضاً .

نقود أكثر لنزوة بضع ساعات ، لكن لا يهم . فتح باب التاكسي ، قذف حقيبته الى الداخل ، وقال :

(كرين تاون ذهاباً واياباً!)

غشت وجه السائق ابتسامة ساحرة وهو يمد يده الى عداد السرعة ، رغم ان اميل كرامر وثب الى المقعد الخلفي وصفق الباب وراءه .

كرين تاون ، فكر ، و ـ

الشيء عند قمة الدرج .

ماذا ؟

يا الهي ، فكر ، ما الذي يجعلني أتذكر «ذلك» في هذا العصر الربيعي الرائق .

واتجهوا شمالاً ، تتبعهم الغيوم ، ليتوقفوا في الساعة الثالثة عند الشارع الرئيسي لكرين تاون . نزل ، ناول السائق خمسين دولاراً كضمان ، طلب منه الانتظار ، ورفع بصره .المظلة فوق مسرح جينسي العتيق ، وبحروف دموية حمر ، كانت تقول : البيت المهووس . الدكتور موت . ادخلوا . لكن لا تحاولوا الخروج .

لا ، لا ، فكر كرامر . الشبح كان أفضل . عندما كنت في السادسة ، كان كل ما دأب على عمله هو ، التيبس ، الدوران ، التثاؤب ، ثم الاتجاه الى الكاميرة بوجهه الشبحي . «ذلك» هو الرعب .

أنا مستغرب ، فكر ، هل كان الشبح اذاً ، اضافة الى الأحدب ، اضافة الى الوطواط ، هي ما أحالت كل ليالي طفولتي تعاسة ؟

خلال تجواله في المدينة ظل يضحك بعمق على ذكرياته السالفة . . .

كيف دأبت أمه القول أثناء فطور الصباح : ماذا «حدث» أثناء الليل ؟ هل «رأيته» ؟ هل كان «هناك» ، أعلى في «الظلام» ؟ كم «طوله» ، ما «لونه» ؟ كيف نجحت بكتم صراخك «هذه» المرة ، فلم توقظ أباك ؟ ماذا ، «ماذا» ؟

بينما كان أبوه ، ينظرهما ، كلاهما ، من حافة جريدته ، ويرمق المشحذ الجلدي(١) المعلق قرب طاولة المطبخ ، جاهزاً للاستعمال . وهو ، اميل كرامر ، بعمر ست سنوات ، كان عليه أن يجلس هناك ، مستذكراً طعنات الألم في مؤخرته كلما فشل في بلوغ المرحاض الواقع في الطابق الأعلى ، كلما أخفق بقضاء حاجته ، محاذاة «الوحش المسخ» المترصد منتصف الليل في عليّة البيت ، صارخاً بآخر لحظة ليرجع الى الأسفل مثل كلب خائف أو قطة محترقة ، ليضطجع مسحوقاً مكسوفاً في القعر من الدرج ، معولاً :

لماذا ؟ لماذا هو هناك ؟ لماذا أعاقب ؟ ما الذي عملته ؟

---

١) المشحذ الجلدي : يستخدم لجلد الأطفال أحياناً . م .

ثم زاحفاً ، مجرجراً نفسه في ظلام البهو يمشي متحسساً طريقه الى الفراش ليضطجع مكروباً بالسائل المتفجر ، متوسلاً بالفجر علّ ذلك « الشيء » يتوقف عن تنطره فينغل في ورق الجدران أو يغور في الشقوق الموجودة تحت باب العليّة .

مرة حاول أن يخفي مبولة تحت الفراش . اكتشفت ، أبعدت وأتلفت . مرة ، بال في مغسلة المطبخ ، ثم حاول استخدامها مراراً ، الا ان اذني أبيه الراداريتين ، تنبهتا ، تسمعتا ، وانفجر به صارخاً بضراوة .

نعم ، نعم ، قال ، ومشى خلال المدينة وكان النهار يأتلق بالألوان . وصل الشارع الذي عاش فيه ذات مرة . انطفأت الشمس . وأصبحت السماء قاتمة . لهث .

فقد ضربت أنفه قطرة واحدة من مطر بارد

(يا ربي!) ضحك . («انه» هناك . بيتي!)

كان فارغاً وعلامة للبيع تنتصب فوق الممشى .

هنالك الواجهة الخشبية ، برواق واسع في احدى جانبيها وبآخر أضيق في الجانب الآخر . هنالك الباب الرئيسي ، وخلفه ، الردهة حيث استلقى في الفراش سوية مع أخيه ، متعرقاً طوال الليل ، بينما الآخرون يغطون بالنوم ويحلمون . ثم الى اليمين ، غرفة الطعام والباب الذي يقود الى حجرة الجلوس والدرج الذي يصعد الى فوق ، نحو ليل سرمدي .

سار في الممشى نحو باب الرواق .

« الشيء » ، في هذه اللحظة ، ماشكله ، ما حجمه ؟ هل يمتلك لايزال ، وجهاً داخناً ، وأسناناً مهشمة وعينين ناريتين ؟ هل حدث يوماً ان همس أو دردم او أنّ ـ ؟

حرك رأسه .

على أية حال ، «الشيء » لم ينوجد حقيقة ، أم ماذا ؟

ذلك بالضبط هو الأمر الذي كان يجعل أسنان أبيه تصطك غضباً كلما حدق الى ابنه الجبان!

الا يمكنه ان يرى ان الحجرة خالية ؟ « خالية » ؟

الا يعرف هذا الطفل اللعين انها ماكنة كوابيسه ، المثبتة في رأسه ، هي التي تومض ، خلال الليل ، بتلك الثلوج من الرعب ، والتي سرعان ما تنحل متحولة الى هواء خانق ؟

وكان أبوه يقوم بحركات بهلوانية لطرد الأشباح .

فتح ميل كرامر عينيه على سعتهما بعد ان انتبه بعجب الى انهما كانتا مطبقتين . خطا نحو الرواق الصغير . لامس مقبض الباب .

يا الهي ! فكر .

فالباب ، غير المغلق ، تحرك منفتحاً بهدوء .

البيت وحجرة الجلوس المعتمة فارغان منتظران .

دفع . تحرك الباب الى الداخل ، يرافقه صرير رزاته الناعم .

الليل نفسه الذي كان معلقاً هناك كأنه ستائر مأتمية ، لا يزال يملأ الحجرة الضيقة مثل تابوت . رائحتها رائحة مطر من سنين أخر ، معبأة بأشفاق زارتها ذات يوم ولم تغادرها قط . .

خطا الى الداخل .

بلحظة خاطفة ، تساقط المطر في الخارج . ولف انهماره العالم . بلل الانهمار أرضية الرواق الخشبية وطغى على صوت تنفسه .

أقدم على المضي خطوة أخرى في ليل مطبق .

ليس هنالك ضوء في نهاية الحجرة البعيدة ، ثلاث خطوات أعلى ـ

نعم ! « تلك » كانت المشكلة !

لتوفير النقود ، لم يترك المصباح مضاء « أبداً » !

لكي تفزع « الشيء » ، كان ينبغي عليك الجري ، الوثوب الى الأعلى ، امساك السلسلة ثم سحبها « لينوّر » المصباح ! لا تنظر الى الأعلى ! فكرت . اذا رأيته ، ورآك ! كلا . كلا ! لكن رأسك ارتج بعد ذلك . نظرت . صرخت !

لان « الشيء » المعتم كان يطوف في الهواء ويندفع بقوة الى الأسفل ليطبق على صراخك كأنه قبر !

لفرنسية " ديكران " ولا إنجليزيته ولا للهجة السائق المحلية .

بعد ذلك ، في " أولفسون " ، الفندق الذي اكتسب شهرته من " جراهام جرين " ، جلس " ديكران " على البار وأخرج كارت أبيه من جيبه . مرر أصابعه فوق الكتابة ولكنه ما زال لا يستطيع فهم الكلمات أو الضياع الذي شعر به . أين أبوه ؟ رغم مئات الأجساد التي انتشلت من البحر ، فإن والده لم يكن بين هؤلاء الناجين .

في الصباح التالي ، أخذ " ديكران " تاكسي للتجول في مدينة " بورت أو برنيس " عبر السوق الحديدي وعندئذ سأل السائق أن يأخذه إلى رصيف الشحن. نساء يبعن مواد غذائية ، ملابس مستعملة ، فرش شعر ، أدوات مطبخ ، تجلسن تحت الشمس المحرقة بينما يظهر خلفهن شحنة من الصناديق الخشبية عليها العلامة الزرقاء للأمم المتحدة .

تجول " ديكران " بعيداً عن مركز الحركة ووجد مكاناً تنحدر عنده الأرض . العديد من المراكب كانت مربوطة إلي الرصيف الخشبي المكسور . كان قارب صيد قديم محاطاً بإطارات سيارات حول هيكله وأصبح معداً للنزول إلى البحر . احتضنته الأمواج في عرض البحر . زحام على الرصيف ، كان هناك حوالي ثلاثين رجلاً أو أكثر . تجمع القليل من النساء والأطفال بالقرب من المؤخرة . إحداهن تحتضن طفلها ، تقابلت نظراتها مع

نظرات " ديكران " ثم نظرت بعيداً بسرعة .
" إلى أين يذهب هذا القارب ؟ " سأل " ديكران " أحد الملاحين البعيدين عن الحشد .
" ذاهب إلى أمريكا ، فلوريدا . شاطئ ميامي " .
" كم ؟ كم يدفع هؤلاء الناس ؟ "
" أربعمائة دولار . دولار أمريكي "
أخرج " ديكران " عشر ورقات من فئة الخمسين دولار من محفظته . " خذ ، أعطِ هذه لقبطانك . واحتفظ بمائة لنفسك " .
نظر الملاح إلى " ديكران " للحظة ، ثم ابتسم .
" أنت صحفي ؟ ربما من رجال الأمم المتحدة ؟ تعالَ ، اذهب إلى أمريكا " .
خطا " ديكران " فوق الرصيف وتشبث بحبل مربوط بأحد الإطارات . " فلوريدا " . شاطئ "ميامي" . سوف يجد والده . هناك في البحر الجائع .

دعنا من التظاهر

إستر هيبويان دي فرايز

ولد أبي في ١٩٢٤ ، ولكن تاريخ شهادة الميلاد كان ١٩٢٣ . كان والدي أحياناً يرثي نزوحه وإنتقاله إلى " إيزرورَم " عندما أتم السابعة عشر . الصورة لولد بلباس رسمي ، قوي وذي وجه ناعم ولا يجرؤ على الحلم . " أفضل سنوات عمري ، اختطفت مني ، هكذا ببساطة ! " كان يعلِق ثم يذهب في تساؤلاته الملحة التي يقطعها بأقوال من نوعية : " اعتقدت أنه كان يجب أن أستفيد من وقتي . وقد فعلت . هذا كل شيء" .

تحسباً للتوترات العالمية ، ضمه الجيش التركي إلى الإحتياط ، جردوه من شعره ، ومن بندقيته ومن كل شيء ، فقط ليجعلوه يعرف من الآن فصاعداً ، أياماً ، وسنيناً - حتى ، لن يكون له علاقة بالأمر .

" إطلاق سراحك هو أسوأ شيء يجب أن تتوقعه ، " قال الضابط وهو يصرخ . ولذلك ، خلال أربع سنوات لا تنتهي ، كان " آجوب كاديريان " يشارك الآخرين المشكوك في أسمائهم وولائهم ، في حفر الطرق ، وأكل العصيدة ، والنوم مع الحشرات ، وأحياناً لعب الكرة لتسلية الجنود .

بعد ذلك كان والدي ، بطريقته المقتضبة ، يستدعي ذكرى الفاصوليا الفاسدة ، مدخني الحشيش ، مباريات كرة القدم ، صدامه مع " داريو مورينو " عند زيارة والدته لواحدة من قواعد الجيش . هل كان ذلك في

" آدانا " أو في " أزمير " ؟ لا يستطيع والدي أن يتذكر .
" لقد كانت جميلة جداً ، بوشاحها الأخضر وغطاء رأسها البني عند مغادرتها للقطار ، " كان يقول ذلك فقط . أحداث ، تواريخ ، أسماء أصبحت الآن في طي النسيان. وكأنه يلتصق بمجموعة من الذكريات ، ظل أبي يتحدث عن صورتين لأمه . الأولى ، سيدة القطار ، الصغيرة والجميلة ، المنعزلة حتى لا تتعرض للجرح ، والتي فور قراءتها لأخبار الدوسنتاريا في المعسكر ، بحثت حتى توصلت لضابط ذي رتبة عليا [عم أحد جيرانها] لتطمئن على أحوال إبنها المحبوب عن طريقه . والثانية ، صورة على شاهد قبرها في مارسيليا ، الإبتسامة باهتة ، هازئة تقريباً ، كما لو أنها كانت تستطيع رؤية السخرية اللا متناهية من كونها ترقد تحت التراب الفرنسي بعد أن وهبت أهل مارسيليا حياتها كلها .
" إذن ، أنتِ لا تعلمين تاريخ ميلاد والدتِك ! " صرخت الموظفة عبر التليفون . كانت شقيقتي محرجة وتحاول أن توضح سوء التفاهم .
" اسمعي يا سيدتي ، ولدت أمي في ٣٠ أغسطس. هذا هو التاريخ الذي كنا نحتفل فيه بعيد ميلادها، أنا متأكدة . ولكن ثبت في السجلات الرسمية أنها ولدت في تركيا ، في مدينة " بستانسي "، نعم في مدينة ب – س – ت – ا – ن – س – ي كما تقول السجلات أن تاريخ ميلادها ١٥ أكتوبر . ولكني مرتبكة، إنني آسفة . ففي

الحالتين ، العام هو ١٩٣٣ " .

" إذن ، كم أماً لديكِ ؟ " ردت الموظفة الفرنسية .

" اسمعي يا سيدتي ، لدي أم واحدة فقط . أنا لست مجنونة . ولا أصطنع أي خداع هنا . هل تستخرجين لنا المستند أم لا ؟ "

" أنتم الأجانب تعرقلون عملنا بالتأكيد ، " قال الصوت . تضايقت شقيقتي من مناداتها بـ " الأجنبية " حيث أنها تتحدث فرنسية ممتازة ، وتعرف العادات الفرنسية ولها أصدقاء أيضاً ، وغيرت اسمها الأول إلى اسم فرنسي كما فعلنا جميعاً في مكاتب الهجرة في " نانت".

أغلقت شقيقتي التليفون بعنف . استدارت ناحيتي.
" كيف ولدت أمي في أغسطس وسُجلت في أكتوبر ؟ " .

غالباً ما كنت أتساءل إذا كانت تواريخ الميلاد الخاطئة لعنة على أفراد العائلة أو على الحكومة التركية غير الكفوء . عندما ولدت شقيقتي ، أصروا على تسجيل السنة الصحيحة ، والشهر الصحيح ، وحتى اليوم الصحيح. هل كان ذلك مجرد حظ أو إحساس متزايد بالواجب ؟ مهما كان السبب ، فذلك كان الوقت الصحيح ، كما فكرت عائلتي ، لمغادرة البلاد .

وتوجهنا إلى وجهات مختلفة .

" ماذا ! أطفالك لم يتم تعميدهم حتى ؟ فليسامحك الرب ! " صرخت الخالة ماري عندما تقابلنا كلنا بعد

سنين في ضاحية كئيبة في باريس ، مشروع بلدة في الجزء الجنوبي من المدينة حيث الاضطرابات التاريخية والنوايا الطيبة تختلط معاً في العائلات الفرنسية من الطبقة الكادحة، العرب النازحون من بلاد نامية ، اليهود المطرودون من الجزائر ، ومهاجرون مثلنا .

ذلك اليوم كانت شقتنا تجمع أرمن من أثينا ، زيورخ ، هامبورج ، مارسيليا ، وتورنتو ... أعمام ، خالات ، وأولاد عمومة ، كلهم إغتربوا عن إستانبول ، يكافحون من أجل إعادة العلاقات السعيدة ولو لمرة واحدة. كانوا يتذكرون النكات ، يستحضرون الأصدقاء الذين تزوجوا وغيرهم ، يغنون الأغنيات الحزينة ، يحكون عن حيواتهم الجديدة ، نجاحاتهم وأحزانهم ، يضحكون ، يبكون ويتحسرون ، يتناقشون ، يشجبون ، ثم ينبذون كل الموضوعات .

كل ذلك في مساء واحد ، رغم أن الوقت كان يمر عليهم . لم أستطع المشاركة كلياً ، مثل أبناء أعمامي الذين كانوا يتحدثون اليونانية ، الألمانية ، الفرنسية ، الإنجليزية وبعض الأرمنية . لطالما اعتقدت أن آباءنا كانوا يحاولون بقوة لتجديد الصلات عندما أصبحت الصلات ضبابية عبر السنين بالإغتراب والقراءة بصعوبة في البلاد الأجنبية .

" الخالة ماري على حق ، منتهى الحق . إنني خجلانة ، " قالت لي أمي مؤخراً في المطبخ بينما تصب القهوة في أقداح صغيرة من الصيني . " ليسامحنا الرب .

ليسامحنا الرب " .

كنت أعلم حينئذ أن أمي تبتعد عني وأنها سوف تبقى حتى يغادر ضيوفها ثم ترحل . قلت بهدوء : " لماذا هذه الجلبة ؟ أطفالي آدميون . رائعون . فلا تضايقوني بقول [ليسامحنا الرب] " . خرجت أمي .

لم أكن أريد إيذاء مشاعرها ولكنني لن أسير وراء أفكار الخالة ماري العتيقة . فأنا لي حياتي الخاصة بمفاهيمها المختلفة . تطور الوقت ، اكتشاف الفضاء . تنظيم المواقف والقدرات . كل شخص يكافح لينتمي لمكان. طفل ابن عمي " تالين " عَمدّه قس ألماني . " فماذا إذن ؟ " فكرت .

" يا له من قس وسيم ، يا له من احتفال رائع ، " أصرت الخالة ماري . أخذت أفكر في طفل نصف أرمني يتلقى المباركة من قس ألماني ربما يكون أجداده قد أحرقوا اليهود ، والغجر وربما الأرمن الجائلين . الحياة نكتة .

على الرغم من مساعدة شقيقتي ، فقد أسقطت القهوة في صحن الفنجان عندما كنت أتحرك في غرفة المعيشة الضيقة .

" آني ، ألم تعلمي بناتك أي شيء ؟ " قالت الخالة " جايان " بسخرية .

" تخلصوا من كل شخص ومن كل شيء ، " اقترح العم " كريكور " بطريقته الصلفة . إنه يعتبر نفسه

حكيماً أكثر من أي فرد آخر فقط لأنه تنقل من فينيسيا إلى باريس ثم هامبورج ويستطيع أن يطلب وجبة بثلاثة لغات.

" خنازير . أخبرتك أننا تحولنا إلى خنازير . تأكل سجق الخنزير على الإفطار ، السجق في الغذاء ، ثم السجق ثانية في العشاء . ماذا يمكن أن تكون غير خنزير؟ إنها حقيقة بسيطة . هيلدا ! أعيدي الأطباق . سوف نشرب كالخنازير " . كان هذا عمي " فاروج " . الذي لمحت السخرية في صوته . نظفت بقع القهوة بالمناديل الورقية ورفعت الصينية ثانية .

عندما عدت إلى غرفة المعيشة ، رأيت الخالة " ماري " تدفع أطفالي إلى تقبيل تمثال صغير من البلاستيك للسيدة العذراء .

" خالتي ماري ! " صرخت . " ماذا تفعلين ؟ "

" أظهِر الإحترام لأمنا في السماء ، " أجابت بدون إنزعاج ." لقد أحضرت بعض الماء المقدس أيضاً . يمكننا أن ننثره على أطفالك " .

" لا يمكن ! " قفزتُ في ثورة . ناولت، الصينية إلى أختي ، مسقطاً القهوة مرة أخرى . أحسست بغضب أمي عليَ . كانت تود لو انني أكثر تكيفاً مع الوضع . أتكيف مع ماذا ولماذا ؟ أبعدتُ إبني وإبنتي عن الخالة ماري . كان يجب أن أغادر ولكنني شاهدت عمي "فاروج" يغمز لي .

" لا تأخذ ما تفعله بجدية . من أين تعتقد أنها

حصلت على الماء ؟ لقد حصلت عليه من جار يوغوسلافي ربما حصل عليه من ماسورة مياه مطبخها ليسخر من ماري المسكينة " .

البعض ضحك على ذلك والبعض ارتجف من هذا التجديف . كان أبي هو من أنهى الحوار . " الآن ، لو كان الله هناك ، دعه يشاهدنا . لن نتكلم . الكلام لا يفيد . ماء مقدس ، لا أفهم . النساء يتحدثن ، لا أفهم . آني ، بحق الإله ، أين القهوة ؟ " .

عندما توفيت الخالة " ماري " ، أراد العم " فاروج" أن يموت أيضاً . ظل يبكي ويبكي حتى لم تعد عيناه قادرتان على البكاء . وعندئذ ، قرر العودة إلى " إستانبول " ودفن زوجته في القسم الأرمني من " سيزلي" . ماذا بقى له في ألمانيا ؟ برد ، طقس بارد . دون شمس . حياة عمال المصانع . أغلبها ورديات ليلية . الساعات تمر ، وتنقضي . ليالٍ متشابهة لا تنتهي . ليالٍ من العزلة ، والضجر ، وبلاً فائدة ، سوى الشجار مع المهاجرين الآخرين . وفي يوم تتحول كلمات الثناء من رئيس العمال إلى ترقية . وأخيراً معاش جيد . ولكن حبيبته " ماري " لم تعد موجودة . والآن كم من الليالي ستكون بهذه العزلة .

استبدت به الغربة . كانت تخنقه . لم يستطع أن يسلم " ماري " لهذه الأرض الغريبة . لا يبدو له ذلك صحيحاً . كان الخيار الوحيد هو العودة . سأل الرهبان أن

يقدموا أفضل جنازة واكثرها حزناً .

أخذ يوضح كيف أن ابنه " بيدروس " أعد ترتيباته بالإتفاق معهم منذ سنوات . لم يكن يعرف متى . ولكنه كان يعرف الحديقة تحت الشمس الملتهبة ، الرمال في المدينة ، رائحة الميناء ، المعديات بين الجزر . ياااااه ، كم استغرق من الوقت حتى إضطجع على ظهر المركب ، ربما طلب الشاي ، واستمع إلى صليل الملعقة في الكوب ذي الحافة المذهبة ، معرضاً شبابه كله لنسيم البحر ، ثم يمشي محاذياً لرصيف السفن ليجد فتاته الأرمنية ، خجولة ومترددة ، بأرجل جميلة وعيون مليئة بالشجن . كلما فكر أكثر في العودة ، كلما تضاءل الألم في صدره . ربما حتى يستقر هناك . لقد افتقد الصيفيات .

" كيف تريد أن تضع الزهور على قبرها ؟ " انفجرت " تالين " وكأنها تهذي .

" شيء آخر : عندما يأتي الشتاء هنا ، يكون الشتاء هناك " .

" كم كان عمر الخالة ماري ؟ " سألتُ أمي .

" حسناً ، هي لم تكن تقول . لا أحد يعرف بالتأكيد. بجانب أن الاحتفال بمولدها لم يكن الاحتفال بيوم مولدها الحقيقي " .

" ماذا تقصدين ؟ هذه ليست إحدى قصصك ثانية؟"

" حسناً ، في تلك الأيام ، عندما كان طفلاً يموت ، نحتفظ بشهادة ميلاد للمولود القادم . الخالة ماري أخذت

شهادة ميلاد أختها المتوفيـة . هـذا هـو كـل شـيء . كـانت هذه عادة شائعة " .

" تخيل وأنـت تكبر فـي ظـل شـقيقتك المتوفـاة ، " نبست شقيقتي في إشمئزاز .

" لا عجب في أننا جميعاً مشوشون تماماً ، " قلـت لـها .

" كفى ، " قالت أمي . " كفى كلاكما ، أعني هذا".

زفاف العروس

ف . ل . ديرديريان

سيروب وآني " مسروران . ابنتهما " آرمينا " ستتزوج . الدعوة تقول " مراد ، شاركنا فرحتنا . تعال ".

" نتمنى أن تكون معك دراهم " زوجتي متشائمة. " أنت لا تفكر في الذهاب ، أليس كذلك ؟ "

هززت كتفي ، ولكني أعلم أنني سأذهب . أستطيع أن أسمع أبي الراحل بصوته الهادئ المعتدل : لقد مر الوقت يا مراد . سامح . الزواج مقدس . لديك ابنة ، كيف تشعر ؟ " سيروب هو أهلك ، عائلتك . يجب أن تذهب .

" ابن عم والدي .. "

" ريك ، والدك لم يحضر زفافنا " . اسمي الأمريكي هو " ريك " . باللغة الأرمينية هو " مراد " . اسمي الحقيقي هو " مراد " . " ليندا " من (الأودار) ، غير أرمينية ، وقد رفضها والدي . ماذا أستطيع أن أقول ؟ إنه زواج مادي ، وهو ما زال على التقاليد القديمة .

استرجعت كيف تعبت حتى وجدت " سيروب " . كيف اقتفيت أثره بعد وفاة والده . ليس لدي عائلة أخرى. كان " سيروب " يعيش في " أرمينيا السوفيتية " . ربما كانت رحلة آثمة ، أو أنه موت والدي ، ولكنني تعاقدت على رحلة كاملة إلى " أرمينيا " . بينما بقيت " ليندا " مع "جيني" .

كانت " أرمينيا " بلداً فقيراً . فقط كانت الكنيسة

غنية بالذهب ، الرسوم ، ومخطوطـات الزخـارف - ثـروة هائلـة . بعـد أن دفعـت للدرجـة الممتـازة أصبحـت ضمـن جولـة الدائـرة الداخليـة وذهبـت لأقـابل بطريـرك الكنيسـة الأرمنية في المدينة المقدسة . كل أفراد الجولـة كـانوا مـن الأثريـاء - جـراح التجميـل " ماليكيـان " ، و " بـيرج بيدروسيان " ملك صناعة الأحذية . وكل فرد منهم كـان جديراً بـالاحترام تمامـاً ، وأنيقـاً جـداً ، مـا عـدا فرديـن غريبين.

كان " هيج " صاحب أسنان سيئة ، وعيوناً بـارزة كعيون كلب صيـد ، وشـارباً أبيض كبيراً . رفيقـة سفره كـانت مفاجـأة ، فتـاة بعيـون حزينـة فـي العشـرينات مـن عمرها واسمها " جارين " . فـي البدايـة اعتقدنـا أنهمـا أب وابنته . وبمرور الوقت سرت شائعات عنه وعن الفتـاة . هل كانت ممرضته ، أم سكرتيرته الخاصة ؟

لكنـي تحاشـيتهما ، كمـا فعـل الجميـع . كـانت " جـارين " رفيقتـه . تفعـل كـل شـئ لـه - تحمـل أمتعتـه ، تساعده على المرور فوق الأحجار . حتـى أنهـا تقـص لـه أظافره . كليك، كليك ، كليك ، تتطـاير الأظـافر الصفـراء الخشنة في خلفية أوتوبيس الجولـة . وفـي مقـابل تفانيهـا ، كان " هيج " يعاملها بازدراء . كل مساء كان صوته الحـاد يرتفع من مائدتهما ، " جارين ، هل يجب أن تأكلي ثانية ؟ إنكِ بقرة غبية " لقد أذلها . ويا للعجب ، ظلـت " جـارين " لأربعة عشر يوماً كاملة ترعاه . مرة واحدة فقط فـي عيد

العرش كادت أن تتوجه إليه باللوم .
" لو سمحت يا أستاذ . غير مسموح لها بالتدخين".
لقد حرص على تنعيم وجنتيه بقوة مثل الرجل في اللوحة المروعة ، الصرخة ؟ نفخ الدخان في وجهها وضحك . ضحكة شيطانية .
محطتنا الأخيرة كانت " إيريفان " . لا توجد هواتف بأي من الفنادق ، ولكنني لم أكن لأغادر دون أن أجد " سيروب " ، ابن عمي . في ذلك الحين كانت "أرمينيا " جزء من الاتحاد السوفيتي ولا تستطيع نسيان ذلك. كان كل شئ غاية في السرية . تواجد الجواسيس . راقبت المخابرات السوفيتية السائحين ، تحكمت في اقترابنا نحو الأشياء ، فقط تركتنا نرى الكثير .
وكلما زادت صعوبة الوصول إلى قريبي ، كلما أصبحت أكثر تحديداً . كل يوم أسأل نفس السؤال ، " هل تستطيع أن تساعدني لإيجاد (سيروب مرديروسيان) ؟ "
موظفو الاستقبال ، المرشدون ، كل واحد كان له عذر . " إنه ليس مسجلاً . إيريفان مدينة كبيرة . هل لديك معلومات أكثر من الاسم ؟ " .
ليلتنا الأخيرة في " أرمينيا " ،كانت شاقة من كثرة المراوغة ومعرفة أنه كان لابد إما الآن أو لا يمكن للأبد ، خرجت بخطة . كنت أئن ، وأمسك معدتي .
عندما رحلت مجموعتي ، استأجرت سيارة أجرة.
" إنني أبحث عن شخص ما ؟ هل تستطيع مساعدتي ؟ " .

" لا توجد مشكلة " .

كل السيارات الأجرة كانت تفعل كل شئ، سوق سوداء ، أعمال خاصة ، كل خطة يمكن أن تتخيلها . قادني في جولة لأكثر من ساعة ، ماراً بدار الأوبرا ، مبنى البرلمان ، ثم إلى الفندق ، كان ضوء الشفق يتلاشى فوق نهر " هرازدان " . دار حول فندقي للمرة الثالثة ، وأخيراً أمسكت بياقته ، " أبحث لي عن منزل سيروب مرديروسيان الآن ، أو سأسحق رقبتك بهذا القماش " .

غمغم باللغة الروسية ، ولاحظت أنه ربما لا يكون قد فهم شيئاً مما قلته . ولكنه خرج فوراً من ميدان البرلمان ، ماراً بمناطق سكنية ، مجموعة من المباني المتألقة المتشابهة غالية الثمن ، ثم منطقة غريبة ذات مبانٍ رمادية منخفضة ومداخن . توقف عند مستودع ضخم .

" أين نحن ؟ "

أشار إلى علامة بالروسية وترجمها " الدائرة الرسمية للعناوين " . إنه كنز .

في الداخل يوجد مئات من الصناديق الكرتونية بنية اللون مرتبة فوق بعضها حتى السقف . انطلق لقاء مائة روبلٍ صاعداً وهابطاً على السلم ، وأعطاني قفصاً متربا مليئاً بالملفات .

" سيروب مرديروسيان " . ٧٥٣٤٥٦ ، ٢ ـ ٢٣٥٦ كاسبر بوليفار .

كان ابن عمـي ، حسب مقاييسهم ، رجلاً ناجحاً جداً. كان لمنزله فناء صغير ، مرآبانٍ للسيارات ، ويطل على جبل " آرارات " . كان مساعداً لوكيل وزارة النقل في ديوان المركبات ذات المحرك ، عمل حقير . ولكنه يملك مرسيدس قديمة وفيات روسية الصنع لزوجته ، "آني".

" مراد ؟ " . كان لـ " سيروب " أنف عائلتي الكبير ، نظارات ، وشارب يشبه ذلك الذي يصنعونه للعرائس البلاستيكية في عيد الهالوين . " أرجوك ، تفضل بالدخول " .

" آني " ، ترتدي عدداً كبيراً من الحلي الذهبية ، تجعلها منحنية قليلاً . كان حجم غرفة معيشتهم ذات الطابع الإسبرطي في حجم غرفة نوم ابنتي ، ولكنها كانت مليئة بالكثير من الأغطية الصغيرة شرقية الصنع مبعثرة فوق أثاث الخمسينيات .

كان " سيروب وآني " يتحدثان بلغة محلية أرمينية وروسية وجدت صعوبة في فهمها . نظراً للإضافات على الكلمات . كنت أذهب إلى " مانهاتن " ثلاث مرات أسبوعياً لأتعلم قراءة وكتابة الأرمينية الأصلية ، ولكن هذه تقريباً لغة أخرى .

" يجب أن تتحدث ببطء ، فلغتي الأرمينية ضعيفة، أنا خائف " .

" بقلاوة ، يابن العم مراد ؟ " عرضت " آني "

طبقاً كبيراً من الحلوى . أخذت واحدة . دفعت بالصينية ناحيتي وفهمت أن تناول أكثر من واحدة هو المعتاد . صب " سيروب " الكونياك من زجاجة معرقة وتحدث عن العم " ديكران " و " ديجين زمروت " وشخص ما اسمه " مانوشاج " ، لا أعرف أحداً منهم . " عائلة آني " ، قال " سيروب " بفخر ، " في الولايات المتحدة " .

" كاليفورنيا " . أضافت زوجته بحياء ، وهي تملس على شعرها نحاسي اللون بيدها القصيرة السمينة المليئة بالخواتم . سألتني أين أعيش في الولايات المتحدة وابتسمت مستحسنة ، رغم أنني كنت أشك أنها تعرف شيئاً عن " بريدج بورت " . عرضت صوراً لـ " ليندا وجيني"، والبيت الذي نسكنه . على مساحة ٣٥٥٥ قدم مربع . القرميد . فزعا وهمسا بشيء لبعضهما . قهقهت " آني " بعصبية ، وأعلن " سيروب " أنهما ينهيان أوراقهما ليهاجرا.

" لماذا تريدان المجيء ؟ " سألت " سيروب " بشك. إنه رجل ثري هناك . ماذا يمكن أن يفعل في الولايات المتحدة ؟

" من أجل آرمينا " . أومأ " سيروب " إلى صورة لفتاة منكسرة بجدائل سوداء وحاجبين كثيفين . " مستقبل ابنتنا " .

كنت أفكر في الفتيات في الصف مع " جيني " .

" سوف تأسفون لمجيئكم إلى أمريكا " .

بدت على وجه " آني " إمارات الخيبة ؟ الغضب ؟ أومأ " سيروب " دون وعي لزوجته ، التي بدأت في رفع أطباقنا .

" آسف . ما كان يجب أن أقول ذلك " .

لوح " سيروب " بيديه رافضاً وغيّر الموضوع . سأل عن أبي ، محله ، وطفولتي . وعندما حان وقت رحيلي تعانقنا كأصدقاء قدامى ، كأبناء عم . عادت " آني" إلى الغرفة ، وصبت في هدوء الباقي من شرابي في الزجاجة الكريستال مرة أخرى ، وتمنت لي الخير .

على الطائرة العائدة ، التقيت ثانية مع " هيج " و"جارين " . حركت قدميها الممتلئتين إلى الجانب لتجعلني أجلس على المقعد بجوار النافذة . كان المغفل العجوز نائماً . بعد الإقلاع بدأت ألاحظ رائحة غير مقبولة . لم تكن كذلك في الدول النامية ، نظراً لعدم وجود تنظيف جاف أو مزيلات رائحة لديهم ، ولكن ذلك كان كثيراً جداً. كانت هذه الرائحة من " هيج " . ربما أكل بسطرمة أو سجق ، لحوم مقددة تخترق الآن مسامه . ربما يحمل مقانق حارة في أمتعته . سعلت وحولت عنقي بعيداً عن الرائحة النتنة ، ولكن " جارين " كانت غافلة .

" كيف وجدت الرحلة ؟ "

" لطيفة جداً . وأنتِ ؟ " أومأت إلى رفيقها .

" إنه السيد هيج . هل سمعت أبداً عنه ؟ "

هززت رأسي ، محاولاً أن أحبس أنفاسي .

" إنه أكثر الشعراء والكتابقيمة . كان لي عظيم الشرف أن أقابله في هذه الرحلة " .

انفجرت " جارين " . " اسمح لي أن أريك " . فتشت في حقيبتها بلهفة وأخرجت منها كتاب جلدي بالٍ . بينما كنت أقلب الصفحات الورقية المهترئة ، انحنت بنفاذ صبر وقلبت الكتاب من نهايته ، واضعة إصبعها عند آخر صفحة . وكان هو في أسفلها . السيد " هيج " . الشارب الكبير ، شعر اكثر سواداً ، ولكنه كان هو . وهي تبتسم كأم فخورة .

قلت " رائع ، رائع " ، نظراً لعدم وجود شئ أفضل أقوله .

نظرت إلى " هيج " . هل طرفت عيناه ؟ لاحظت براحة سماعات منتشرة ، ووضعتها باقي الرحلة حتى نهايتها . كان الوقت بعد منتصف الليل بتوقيت " نيويورك" عندما أنهت مجموعتنا الإجراءات وخرجت . سلمت " جارين علي بحرارة ، بينما انتزع السيد " هيج " حقيبته من على سير الحقائب وانطلق بسرعة ، قافزاً في إحدى سيارات التاكسي المنتظرة .

* * *

بينما كنت مسافراً ، تشاجرت " ليندا " مع السيد خاليدي " المقاول . فلقد أوقف العمل في منزلنا ،

مستشهداً بشيء من القرآن . منزلنا القديم كان مقاماً بالفعل في السوق ، منزلنا الجديد المبني نصفه ، ليس كذلك . ظللنا لثلاثة أسابيع نناقشه ليلاً ونهاراً في مسألة تعامله مع امرأة غربية . قلت له " العرب هم من يفضلون أن تمشي وراءهم النساء على بعد خمسين قدماً . وليس أنا " . ثم توقف " خاليدي " عن الرد على مكالماتي .

خلال هذا المأزق تسلمت خطاباً من " سيروب " . لم يكن من الواجب أن أفاجأ ، ولكنني فوجئت .

المناخ السياسي في الاتحاد السوفيتي يتغير يومياً ، ونجحوا في الحصول على تأشيرة خروج .

الرحلة ١١٧ الساعة ٣،٣٠ بعد الظهر . إلى مدينة " نيويورك " . هل يمكن أن يعيشوا معنا حتى يستقروا ؟ كان ذلك أسوا توقيت ممكن .

قابلت " سيروب " و " آني " و " آرمينا " في مطار " كينيدي " . لم تكن " آرمينا " تلك الفتاة الصغيرة التي في الصورة ، ولكنها مراهقة ذات مظهر حزين ووزن ثقيل . انحنى " سيروب " على ركبته ولمس مشمع الأرضية القذر.

" ما هي خططهم ، يا ريك ؟ " زفرت " ليندا " بعد أن أخذتهم لأول عشاء في " مانهاتن " . " دعهم يستقرون إذن " .

خلال الأسابيع العديدة التالية كانوا يقضون الوقت في مشاهدة التليفزيون . قررت أن أقوم بشيء لقتل

الوقت. قدت"سيروب وآني " إلى مدرسة شرق " بريدج بورت " ، ليتعلما الإنجليزية . لم تود " آرمينا " أن تذهب، وفضلت أن تبقى بغرفة " جيني " تشرب الكوكا منخفضة السعرات.

بعد الدرس ، كان " سيروب وآني " غاضبين . "لن نذهب ثانية " .

" لماذا ؟ لماذا ؟ "

" كلهم مكسيكيون " ، قالت " آني " وهي تنتحب .

" مكسيكيون قذرون " ، قال " سيروب " موافقاً .

حدقت في " سيروب " في استنكار . كان عابساً ، ذا شارب اسود ، وشعر فاحم السواد ، قصير القامة ، ويشبه " بانشوفيلا " ذاته . شرحت لهما أهمية تعلم اللغة ، ولكن كثرة النقاش لم تغير تفكيرهما .

كنت اخرج معظم اليوم ، ولكن " ليندا " كانت تغلي . طلب " سيروب " أن يستعير سيارتنا ، أرادت " جيني " أن تسترجع غرفتها ، كانت " آرمينا " تعتبر المنزل كمطعم للأكل فقط ، ورفضت " آني " أن تتحدث مع أحد . " اتصل السمسار . أرسل شخصاً ما ، ولكن كانت هناك معلبات في جميع أنحاء غرفة جيني . ألومنيوم من الحائط إلى الحائط " . كانت زوجتي تكز على أسنانها وهي تنتزع جوارب " آرمينا " من على رف المناشف . " ريك ، يجب على أحد أن يغادر ، أنا أو هم".

" لن يستمر هذا طويلاً " . كنت أعلم أن ذلك ليس صحيحاً رغم أنني قلته . لم يكن لدى ابن عمي أي خطط، ولا أي عمل متوقع . تلك الليلة سألني " سيروب " أن يتحدث معي على انفراد . طوق أكتافي بيديه الكبيرتين المشققتين . " مراد ، لا تنسى أبداً . أنت عائلتي " . استطاع أن يكون مؤثراً جداً ، ووضعت يدي على محفظتي .

حينئذ وصل إلى مربط الفرس . " نحن نعوق طريقك . نريد لشراء منزلنا خمسة وعشرون ألف دولار".

" خمسة وعشرون ألف دولار ؟ "

عقد حاجبيه وأعاد الرقم بالأرمينية . بلعت ريقي.

" لا تستطيع شراء شئ لقاء خمس وعشرون ألف دولار . في سوق اليوم ، يا سيروب ؟ محال " .

" ولكن ، مراد يا بن عمي العزيز ، لو سألت ثلاثة آخرين من أقاربي سيكون لدي مائة ألف دولار " .

شعرت بالإهانة ، ولكن بعد أن أوضحت له عدم إمكانية جمع هذا المبلغ الضخم ، اسقط في يده ولم يكن هناك المزيد ليقال .

في اليوم التالي اتصل السمسار بعرضٍ مغرٍ . كان أمامي أنا و " ليندا " خمسون دقيقة لنقييم العرض .

" ريك ، أنظر إلى هذا " نادت " ليندا " من دورة المياه ، بغضب . كان البورسلين والقرميد مغطى ببقع بنية خفيفة . كانت حنة " آني " السائلة . " يا إلهي . لقد

حَصَلَت عليها تواً " . حينئذ فقط خرجت " آنـي " من غرفتها ، ومنشفة ملفوفة حول شعرها مثل تاج ملكي .

" نحن راحلون . إلى [جليندال] . إنه ، كيف تقولونها ؟ أكثر مما نستطيع تحمله " ألقت المنشفة وأضافت بغطرسة ، " من الفرس " .

ظللنا لباقي الأسبوع نتحاشى بعضنا . وفي صباح سفرهم ، استدعيت لهم سيارة أجرة ، وأعطيتهم ألف دولار، وودعتهم . لم أكن أشعر بالذنب . وقالت " ليندا " أنني كنت رائعاً معهم . كان ابن عمي ، ولكن لم تكن بيننا عاطفة ، ولا حب ، فقط أعطني ، أعطني، أعطني .

بقي " سيروب " على اتصال طوال العامين التاليين، وعلى الأخص من خلال كروت الكريسماس والمكالمات في المناسبات . وقد تعودت منه أن يطلب دائماً شيئاً ، منحة مثلاً .

" ابن عمي العزيز مراد " ، بدأ هكذا . " كيف حال زوجتك العزيزة وابنتك ؟ " أصبح الأمر هزلياً ، مثل لعبة ، وتساءلت أحياناً إذا كان الأمر مجرد عذر واهٍ ليبقى على اتصال .

استأجرت رداء للسهرة وطرت إلى " لاكس " . السماء مملوءة بالضباب والدخان ، كانت رياح " سانتا آنا" تتفجر بالحرارة ن والتلال مشتعلة . عيناي تلسعاني . ولا أستطيع أن أرى لمسافة قدم أمامي .

قدت عبر " هوليود الغربية " و " جليندال " ـ

أرمينيا الصغرى - المليئة بالمخابز ومحلات البقالة والمجوهرات ، شركات التأمين ، والشركات الصغرى . العلم الأرمني ، ذو الألوان الثلاثة البرتقالي والأحمر والأزرق ، معلق على مظلات النوافذ ويرفرف على نوافذ المحلات . عندما كنت في " أرمينيا " ، كان هذا العلم يعتبر محظوراً ، وقد اربكني مظهرهم . " أرمينيا " مستقلة ، دولة تكافح . لأول مرة في حياتي شعرت بالأسف لأن أبي لم يعش حتى يراها .

عند الغروب ، ثلاثة مراهقين يقفون عند زاوية ، يدخنون ، يضحكون ، ويشتمون . ينحنون بجينزات ملتصقة بأجسادهم وجاكيتات جلدية ، بشعور سوداء طويلة، وأجنحة غربان كبيرة ، كانوا يقصدون ويسخرون من اللوطيين ، ثم دخلوا في حالة هيستريا . كنت مسروراً أن " ليندا " و " جيني " في المنزل . فموجات المهاجرين هذه إلى " هوليود الغربية وجليندال ولوس أنجلوس " سيئة. إنهم جماعات أرمينية . الجدد منهم كبروا تحت جناح الشيوعية ، وكلهم تعودوا على مساعدة الحكومة ، ورعايتها . والسوفيت اعتنوا بهم هناك ، وقد توقعوا أن يلاقوا نفس الشيء هنا . أبي يتقلب في قبره . عندما جاء، لم يكن يتحدث كلمة إنجليزية واحدة ، فتح متجراً ، ظلت أعماله تتضاعل . ولم يأخذ أحداً منا مساعدة . أبداً .

المرأة ذات الأرجل المقوسة المرتدية رداء أسود وتعرج ، يقلد أحد الأولاد مشيتها المثيرة للشفقة على طول

الطريق . لخوفها ، أسرعت . شعرت بالخزي والعار .

تتبعت الخريطة حتى أرض الفرس ، بيوت قديمة منخفضة من الجص وأشجار مقطوعة وبراميل زيت صدئة في المداخل . " سيروب " منحني فوق غطاء سيارة رياضية حمراء .

" لقد أتيت " . وضع " سيروب " الخرقة ذات الشحوم وأخذ يدي بين راحتيه المشحمتين . لقد وجد نشاطاً يلائمه في الاقتصاد الأمريكي حيث يستبدل السيارات " الفيروس " بأخرى " بورش " مثلما يفعل زوج أخته .

" ما زلت تعمل في مجال السيارات " ، قلت ذلك كمزحة . " أردت أن أتوقف عندك قبل أن أذهب للفندق ".

أخبرني " سيروب " هناك عن ازدراء السلالات في " سانت جريجوري " ، ولكن كل شئ بخير ، " آني وآرمينا " هناك الآن . " هناك تغير – كيف تقولها – في التوقيت . تأجل الزفاف إلى الرابعة بعد الظهر ، أريد أن أطلب منك معروفاً ، يا مراد " . تردد ، وتعلقت عيناه بالطريق . " رجاءً "،

مال . كان يجب أن أتوقع ذلك . سوف يطلب المهر ، قرض لتغطية تكاليف الزفاف . تنهدت ، الأشياء بيننا لا تتغير أبداً .

" هل تقدم آرمينا إلى زوجها ؟ "

من الواضح أن وصولي أثر في ابن عمي .

"سيكون من دواعي سروري . ولكن من المؤكد أنك ...". ابتسم " سيروب " ، " إنه شرف يا مراد من قريبٍ لنا " .

وصلت إلى الفندق وفتحت الدش الساخن لأجعل البخار يتسرب إلى داخل رداء سهرتي بينما أخرجت دفتر تليفونات " لوس أنجلوس " وبحثت عن كل أفراد عائلة " مارديروسيان " والأرمن الآخرين الذين تنتهي أسماءهم بـ " ا ن " . إنه فعل روتيني أتبعه أينما ذهبت . عادة لا يوجد أي منهم . فنحن ذرية مقطوعة . " ليندا " تدعوها طاردة الديناصور . ولكن في " لوس أنجلوس " أحصيت ٤٥ شخصاً لهم نفس الاسم الأخير لاسمي ، وابتهجت.

في " سانت جريجوري " كانت " آني " تعتني بالعروس . لم أكن قد لاحظت " آرمينا " . كانت تضع ظل جفون أزرق ، أحمر شفاه مشتعل ، وثوباً غاية في الضيق . كانت تبدو منفوشة ورخيصة، بارتباك ، قبلت " آني " على خدها ذي المسحوق وعانقت " آرمينا " وقلت شيئاً عن مدى نموها . كنت أعلم أنني أبدو زائفاً ، ولكنه أفضل ما استطعت فعله .

" ولكن أين ليندا وجيني ؟ " نظرت " آني " حولها.

قدمت عذراً عن المدرسة ، والعمل . رفعت "آني" أحد حاجبيها المرسومين ، ولكن " آرمينا " لم تقل شيئاً . وجهها المصنوع كان دون أي تعبير .

" لا تتحدث الإنجليزية " ، وضحت " آني " برضا.

بينما يستعدون ، جلست في آخر الكنيسة وأخذت أتصفح جريدة المغتربين ، " وطننا " ؛ كانت معظم المقالات عن النزاع الحدودي على " ناجورنو كاراباخ " ، وجهود إعادة البناء بعد الزلزال . الصفحة الأولى تغطي أزمة نقص الوقود في " إريفان " المدمرة والناس الذين تحولوا إلى الخشب من أجل التدفئة . في الصورة ، " طريق باجراميان " ، الذي كان دائما مورقاً ومزدهراً، أصبح مجرد أخشاب عارية .

فجأة بدأت النساء ذوات العطور الثقيلة في ثياب لامعة ومشجرة والرجال متوسطي العمر في ثياب بنية وأحذية خفيفة ، أصدقاء " آني وسيروب " ، في الدخول . كانوا يحدقون في ردائي وحذائي اللامع . شعرت أني أرتدي أكثر من اللازم ، وأنني غريب على المكان . " تستطيع أن تستأجر رداء سهرة ، وحذاء أيضاً " ، وضحت للرجل المذهول الجالس إلى جانبي يومئ .

تبدو " آرمينا " خائفة ، مثل صورتها المدرسية في " إريفان " . أخذت مكاني وقدمت لها ابتسامة مطمئنة . "آرمينا " الصغيرة سيدة متزوجة ! ما أسرع ما يكبر الأطفال ، ويتكيف الناس ويتغيرون . ماذا كان والدي ، أو أي واحد من جيله سيعتقد في صِلاتنا أنا و " ليندا " ، " سيروب " وعائلته في " كاليفورنيا " ، أرمينيا حرة ومستقلة؟ ربما الأشجار اليابسة في " باجراميان " سوف

تنمو ثانية . ربما مع الوقت سوف تصل فروعها الجافة إلى السماء وتزدهر . إنهم مثل " أرمينيا " . سوف يحيون.

بدأ الأرغن ترانيم الموكب وفجأة شحبت " آرمينا " واضطربت ، واندفعت خارجة من الكنيسة، توقفت الموسيقى والتفت " سيروب وآني " ، بقلق من التأخير . أغلق باب حجرة الانتظار وسمعت نشيج . همست " آني " بشيء ما في أذن " سيروب " ، كان يعتصره التوبيخ الذي تطلقه العيون القلقة ، أوحت عيونه بالخطر وغامت . كيف كنت غبياً إلى هذه الدرجة ؟ الزوج يبدو منظماً جداً يحتاج لمن يعدله . رجل غني ، عجوز فاسق . تذكرت ملامح السيد " هيج " العتيقة ، عيونه البارزة التي تطلق نظرات فضولية نحو " جارين " قليلة الحظ .

" يا إلهي ، " قلت لاهثاً . " لا يمكن أن تفعل ذلك. كيف ؟ " نطقت نصفها بالإنجليزية ونصفها بالأرمينية . نفس الأسنان الفاسدة . نفس الرائحة .

بدأ الضيوف يصبحون عصبيين ويزفرون .

" آه آرمينا ، يا إلهي ، ما زال يمكنك أن تغيري رأيك " . توسلت وبعد فترة بدت وكأنها الأبد فتحت الباب ببطء ، وقد بللت عيناها المحمرتان غلاف إنجيلها المزخرف . " أنت تعرف الأرمن ، سوف يحتفلون بدونك".

إنني يائس . مثلت لها شكل طائرة ، مشيراً إلى

إصبعي الذي فيه خاتم الزواج ، لوحت مودعاً . " سوف أعيدك إلى بريدج بورت . تستطيعين إيجاد عمل و شقة. وتعيشين معنا " .

هل تخيلت أنها ترددت ؟

بارتعاشه خفيفة من رقبته الصغيرة العجفاء ، أعطى العريس الإشارة ليواصل الأرغن العزف .

" موافقة " ، زفرت " آرمينا " بخفة عندما ارتفعت الترانيم مجلجلة . أخذت ذراعي المرتجف ، وقادتني عائدة على البساط الأحمر المستدير .

- القصص مأخوذة من مجلة " آرارات ARARAT " - العدد الرابع - خريف ١٩٩٨ .

- قصص " هاجوب أوشاجان HAGOP OSHAGAN " كُتبت باللغة الأرمنية وترجمها إلى الإنجليزية كل من:

١.الآنسة إيفا : تالين فوسكرتشيان TALINE VOSKERITCHIAN

٢.قصة قبلة : آريس سيفاج ARIS SEVAG

٣.المرأة التي سقطت من السماء : آريس سيفاج ARIS SEVAG

٤. الأطلال : ج . م . جوشجاريان G.M.GOSHGARIAN

قصص أرمنية

عندما يموت العالم برفق

92

ميريت للنشر والمعلومات